منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مقاومة الإلحاد
دراسة تحليلية

إعداد

د. محمد بن إبراهيم الحمد

أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة القصيم

alhamad2654@gmail.com

ملخص البحث:

هذا البحث يدور حول منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مقاومة الإلحاد، وذلك عبر دراسة تحليليَّة.

والمقصود بالإلحادِ ههنا: الإلحادُ المعاصر الذي يعني إنكار الرب، والكفر بالغيب، وتكذيب الرسالات والمعاد.

وتكمن أهمية هذا البحث في كونه يمثل وجهة نظر جمعية علمية مسلمة تجاه قضية تُعَدُّ أخطر القضايا المخالفة لعقيدة الإسلام.

ويهدف البحث إلى إيضاح منهج الجمعية النقدي في مقاومة الإلحاد المتمثل في بيانها لأسبابه، ومفاسدِه، وتحذيرها منه.

وإيضاح منهجها البنائي في مقاومة الإلحادِ المتمثل في قيامها بالإصلاح العقدي، والعلمي، والتربوي.

الكلمات المفتاحية: منهج – جمعية – العلماء – الإلحاد.

The Approach of the Algerian Muslim Scholars Association in Combating Atheism An Analytical Study

Dr. Mohammed bin Ibrahim Al-Hamad
Associate Professor in the Department of Contemporary Belief and Doctrines - College of Sharia and the Islamic Studies at Qassim University
alhamad2654@gmail.com

Abstract:
This research revolves around the approach of the Algerian Muslim Scholars' Association in combating atheism through an analytical study.
Atheism here refers to contemporary atheism, characterized by the denial of God, disbelief in the unseen, and rejection of divine messages and the afterlife.
The importance of this research lies in its representation of the perspective of a Muslim scientific association regarding an issue considered as one of the most formidable challenges to Islamic faith.
The importance of this research lies in the fact that it represents the point of view of a Muslim scientific association regarding an issue that is considered one of the most dangerous issues that contradicts the Islamic faith.

This study aims to clarify the association's critical strategy in combating atheism, which encompasses an analysis of its causes, its detrimental effects, and a warning against it.
Additionally, it aims to highlight the association's constructive approach to countering atheism through its commitment to doctrinal, scientific, and educational reform.
Keywords: Approach, Association, Scholars, Atheism.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد فإن موضوع الإيمان بالله لأهمُّ المهمات وأوجب الواجبات، وإن قضية الإلحاد لأخطر القضايا، وأشنع الموبقات، وأعظم ما يضاد الإيمان بالله –جل ثناؤه–.

والإلحاد قضية قديمة حديثة متجددة؛ إذ كان يطلق في السابق على بعض المعاصي، أو الانحرافات العقدية عموماً، ويصدر من أفراد أو طوائف.

وفي العصور المتأخرة صار ظاهرةً عالمية؛ فالغرب –وإن كان وارثاً في الظاهر للعقيدة النصرانية التي تؤمن بالبعث والجنة والنار – ترك –في الأغلب– هذه العقيدة، وصار إيمان الناس هناك بالحياة الدنيا فحسب، وأضحت الكنيسةُ مجردَ تراثٍ، وصار الإلحاد هو الدينَ الرسْمِيَّ الذي عليه دستور تلك البلدان.

وأما في الشرق فقد قام على الإلحاد أكبرُ دولةٍ عرفت بذلك، ألا وهي روسيا التي تحمل العقيدة الشيوعية، وتقوم أنظمتها على رفض الغيب، والنظر إلى الحياة والكون من منظور مادي بحت، ثم زادت حِدَّةُ ذلك الإلحاد؛ فمدَّ رُواقه إلى كثير من بلدان العالم لأسباب كثيرة؛ فأخذ الإلحاد معنىً خاصًّا، فصار يطلق على إنكار الرب، والكفر بالغيب، وتكذيب الرسل، ونفي البعث والحساب والجزاء والجنة والنار(١).

ولقد عاش الإلحاد أَوَجَهُ في مطالع القرن العشرين الميلادي؛ إذ كانت الدعاية له على أشدها، والمواجهات له في بداياتها؛ إذ تَصَدَّر لمقاومة تلك القضية نفر من العلماء، وعدد من الجمعيات التي عاصرت تلك الفترة.

ومن ذلك ما كان من شأن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان لها في عمومها ولبعض أفرادها منهج في مقاومة تلك الظاهرة.

(١) انظر تفصيل ذلك –على سبيل المثال– إلى نقد أصول الشيوعية للشيخ صالح بن سعد اللحيدان، ص٤٠، والشيوعية خلاصة ضروب الكفر والموبقات لأحمد عبدالغفور عطار ص٣١-٣٢، وحكم الاشتراكية في الإسلام للشيخ عبدالعزيز البدري ص٥٨، وردود علماء الغرب على الإلحاد المعاصر د. جوهانس كلومنك – عبدالله السويدي ١/٢٧-٤١.

وبعد استشارة واستخارة رغبت في دراسة المنهج الذي سارت عليه الجمعية في ذلك الشأن؛ فجاء هذا البحث حاملاً المسمى التالي: "منهجُ جمعيةِ العلماء المسلمين الجزائريين في مقاومة الإلحاد دراسة تحليلية".

مشكلة البحث: تكمن مشكلة البحث في السؤال العام التالي:

ما منهجُ جمعيةِ العلماء الجزائريين في مقاومة الإلحاد؟

ويتفرع عن هذا السؤالِ السؤالان التاليان:

١- ما منهجُ الجمعيةِ النقديُّ في مقاومة الإلحاد؟

٢- ما منهج الجمعيةِ البنائيُّ في مقاومة الإلحاد؟

أهمية الموضوع: يمكن إجمالُ ذلك فيما يلي:

١- كونُ موضوعِ الإلحاد من القضايا العقدية الفكرية الخطيرة؛ إذ يأتي على رأس الضلالات والانحرافات.

٢- ما لِمَنْهَجِ جمعية العلماء في الجزائر في هذه القضية من الأهمية؛ إذ هو يمثل وجهة نظر مجموعة من أكابر العلماء في القطر الجزائري على وجه الخصوص والعالم الإسلامي عموماً.

٣- أن بيان ذلك المنهج يسهم في مواجهة الإلحاد، ومحاصرته، ومقاومة ما يستجد في شأنه.

٤- كون هذا الموضوع لم يطرق من قبل في دراسة علمية متخصصة.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى إيضاح منهج جمعية العلماء في الجزائر في مقاومة الإلحاد.

ويتفرع من هذا الهدفِ العامّ الهدفان التاليان:

١- إيضاح منهجِ الجمعية النقدي في مقاومة الإلحاد.

٢- إيضاح منهجِ الجمعية البنائي في مقاومة الإلحاد.

حدود البحث: تنحصر حدود البحث فيما دوّن في ذلك الشأن باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عموماً، أو ما صدر عن أحد أعضائها، وأهم ما في ذلك ما يلي:

١- ما جاء في البيانات الصادرة عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

٢- ما جاء في آثار رئيسها الأول الشيخ عبدالحميد بن باديس.

٣- ما جاء في آثار رئيسها الثاني الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

الدراسات السابقة: الدراسات التي تناولت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كثيرة متنوعة سواء الدراسات للجمعية عموماً، أو لبعض أفرادها، وأهم ما في ذلك ما يلي:

١- النشاط الإصلاحي والتعليمي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمنطقة الجلفة: وهي رسالة دكتوراه لعبدالعزيز نارة، تقدم بها إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة أحمد دراية عام ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م.

٢- جمعية العلماء المسلمين نشأة وتطور الإصلاح بمدينة الجزائر ١٩٣١م -١٩٤٠م: وهي مقدمة لنيل شهادة الماجستير، إعداد عفاف زقور، السنة الجامعية ٢٠٠٦-٢٠٠٧م، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ.

٣- الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دراسة مقارنة بين عبدالحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي: وهي مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الدعوة الإسلامية، إعداد الطالبة: شهرة شفري، العام الدراسي ١٤٢٩-١٤٣٠هـ، ٢٠٠٨- ٢٠٠٩م، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية، أصول الدين.

٤- جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تقرير توحيد العبادة، والرد على المخالفين، للباحث سليم فؤاد مجوبي، وهي رسالة ماجستير مقدمة لكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية العام الجامعي ١٤٢٨-١٤٢٩هـ.

فهذه الرسائل وغيرها كثير[٢] تبين قيمة جمعية العلماء الجزائريين، واستحقاقها للدراسة.

ويبقى منهج الجمعية في مقاومة الإلحاد بحاجة إلى أن يفرد بالدراسة والتحليل.

خطة البحث: جاءت مشتملة على ديباجة البحث، ومشكلته، وأهميته، وأهدافه، وحدوده، والدراسات السابقة، وتقسيمات البحث.

(٢) سيرد في غضون البحث ذكر لعدد آخر منها.

تقسيمات البحث: اقتضت طبيعة البحث أن يكون في تمهيد، ومبحثين، وذلك كما يلي:

تمهيد: تعريفٌ بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

المبحث الأول: منهجُ الجمعيةِ النقديُّ في مقاومة الإلحاد: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: بيانها لأسباب الإلحاد

المطلب الثاني: بيانها لمفاسد الإلحاد، وتحذيرها منه

المبحث الثاني: منهجُ الجمعيةِ البنائيُّ في مقاومة الإلحاد: وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قيامها بالإصلاح العقدي

المطلب الثاني: قيامها بالإصلاح العلمي

المطلب الثالث: قيامها بالإصلاح التربوي

الخاتمة: وتحتوي على أهم النتائج والتوصيات

فإلى تفصيل ذلك، والله المستعان، وعليه التكلان.

تمهيد: تعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الكلام على جمعية العلماء الجزائريين يطول، وقد كُتِبَتْ في ذلك الكتب، وأُلِّفَتْ الرسائل الكثيرة.

وحسب المقام ههنا أن يعرف بالجمعية بإيجاز شديد، وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: نشأتها: نشأت هذه الجمعية في الجزائر في ٧/ ١٢/ ١٣٤٩هـ.

وترجع فكرة إنشائها إلى العالمين الكبيرين المصلحينِ الشيخ عبدالحميد بن باديس ١٣٠٥- ١٣٥٩هـ[٣] والشيخ محمد البشير الإبراهيمي ١٣٠٦-١٣٨٥هـ؛ حيث كان هاجس الإصلاح، والنهوض بالجزائر علمياً وعقدياً، وخلقيا، واقتصادياً - حاضراً في ذهن هذين الرجلين خصوصاً بعد أن عانت الجزائر ما عانت من ويلات الاستعمار الفرنسي، وما خلَّفه من دمار وجهل، وفقر، وفساد.

وقد سبق إنشاءها إرهاصاتٌ عدة، وتحضيرات كبيرة يطول ذكرها، ولكن الجمعية لم ترَ النور إلا بعد ذلك التاريخ المذكور[٤].

ثانياً: أعضاؤها الأوائل: في سنة ١٣٤٤هـ نشرت جريدة الشهاب التي يصدرها الشيخ ابن باديس مقالاً يدعو العلماء في القطر الجزائري إلى التعارف، والتآلف، والاجتماع والدعوة إلى تأسيس جمعية تعنى بالإصلاح، والرجوع بالأمة إلى الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة.

وقد لقي ذلك المقال قبولاً عند العلماء، وتوالت الكتابات على إثره إلى إدارة الجريدة مُؤَيِّدَةً بالاقتراحات والتوجيهات.

---

(٣) أغلب من ترجم لابن باديس يذكرون أنه ولد سنة ١٣٠٨هـ، وبعضهم يُخَطِّئ الزركلي في الأعلام ٦٠/٤ حيث ذكر أن ابن باديس ولد سنة ١٣٠٥هـ.

ولعل ما ذكره الزركلي هو الصحيح، ويؤيد ذلك أن الإبراهيمي ولد في ١٣٠٦/١٠/١٤هـ وهو أعرف الناس بابن باديس؛ إذ هو رفيق عمره، وصاحبه في التأسيس لجمعية العلماء.

وقد جاء ضمن كلام له عن ابن باديس: =يكبرني الشيخ بنحو سنة وبضعة أشهر+ انظر آثار الإبراهيمي ٢٧٨/٥.

(٤) انظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ١٠/١-١١، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها في اللغة والأدب، صالح الجلعود ص١٩-٢٠.

وفي سنة ١٣٤٧هـ وجه ابن باديس دعوة أخرى إلى الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي، وغيرهم من الذين رأى فيهم القدرة والاستعداد، فلبى دعوته كلٌّ من: محمد البشير الإبراهيمي، ومبارك بن محمد الميلي، والعربي بن بلقاسم التبسي، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد بن خير الدين(٥)؛ فهؤلاء هم الرواد ا لأوائل للجمعية.

وفي ذلك الاجتماع خطبهم ابن باديس، وذكرهم بما يريده الاستعمار الفرنسي من القضاء على الهُوِيَّة الإسلامية والعربية للشعب الجزائري، وإذلاله، وطمس ثوابته، ومقومات حضارته، وتلا عليهم بعض القوانين الصادرة في ذلك، ثم عرض عليهم خطة العمل في عناصر عدة، وشرعوا في تكوين اللجان العاملة لتسيير العمل، وتنفيذ الخطط المرسومة.

وهكذا تأسست الجمعية في ١٧/ ١٢/ ١٣٤٩هـ برئاسة الشيخ ابن باديس، ونيابة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وعضوية من معهما من الأعضاء العاملين، وهم محمد الأمين العمودي كاتباً عامًّا، والطيب العقبي نائباً للكاتب العام، ومبارك الميلي أمينًا للمال، وإبراهيم بيوض نائباً لأمين المال.

وقد ضمَّت الهيئة مجموعة من الأعضاء المستشارين، ووضع الإبراهيمي دستور الجمعية، ونظامها الأساسي(٦).

وبعد وفاة ابن باديس في ٨/ ٣/ ١٣٥٩هـ تولى الإبراهيمي رئاسة الجمعية.

ثالثاً: خلاصة أهداف الجمعية: الكلام على تفصيل أهداف الجمعية، يطول، وقد كُتب فيه كثيراً، وخصوصاً ما رَقَمَتْهُ يراعةُ الرئيس الثاني الإبراهيمي؛ إذ بَسَط الكلام عن ذلك في غضون آثاره في مجلداتها الخمسة.

ومع ذلك فقد لخص تلك الأهداف في صياغته لـ: (فلسفة جمعية العلماء) وذلك بقوله: "جمعية العلماء جمعية علمية دينية تهذيبية؛ فهي بالصفة الأولى تعلم، وتدعو إلى العلم، وترغِّب فيه، وتعمل على تمكينه في النفوس بوسائل علنية واضحة لا تستتر.

(٥) انظر تفصيل ترجمة أولئك الأعلام في جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تقرير توحيد العبادة ص٢٥-٧٩.

(٦) انظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ١/٩-١١، وجهود أعلام جمعية العلماء الجزائريين في تقرير توحيد العبادة ص١٤-٢٠.

وهي بالصفة الثانية تعلم الدين والعربية؛ لأنهما شيئان متلازمان، وتدعو إليهما وترغب فيهما، وتنحوا في الدين منحاها الخصوصي"(٧).

ثم أوضح المراد بذلك المنحى بقوله: "وهو الرجوع به إلى نقاوته الأولى، وسماحته في عقائده وعباداته؛ لأن هذا هو معنى الإصلاح الذي أسست لأجله، ووقفت نفسها عليه، وهي تعمل في هذه الجهة بوسائل علنية ظاهرة"(٨).

ثم أوضح بقية الأهداف، وهي الدعوة إلى مكارم الأخلاق التي حَضَّ الدينُ والعقل عليها، ومحاربة الرذائل الاجتماعية التي قبَّح الدين اقترافَها، وذَمَّ مقترفيها.

وبيَّن أن الجمعية تعمل لترقيةِ فكر المسلم بما استطاعت، وتُرْشده إلى الأخذ بأسباب الحياة الزمنية، وتُريه ما يتعارض منها مع الدين وما لا يتعارض، وما يكون فيه من العون الصالح لأولي الأمر على ما يعملون له من هناء وراحة.

ثم يوضح أن الجمعية -مع هذا- مرتبطةٌ بالعالم الإسلامي أفراداً وشعوباً بما يترابط به المسلمون من حقائق دينهم ومظاهره، وتلتقي مع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كما يلتقي العقلاءُ كلُّهم على معقول واحد من غير أن تتلاقى الأجسام أو الأقدام، أو تتراسل الأقلام.

ثم يختم تلك الخلاصة بأن الجمعية فيما عدا ما ذكر جزائرية محددة بحدود الجزائر، مربوطة بقانون الجزائر؛ لأن أعضاءها كلَّهم من أبناء الجزائر(٩).

وكما لخص الإبراهيمي أهداف الجمعية على نحو ما ذكر في الكلام السالف فقد لخصها -كذلك- بصورة أوضح وأوجز في مقالة له في مجلة الشهاب، وعنوانها: (جمعية العلماء دعوتها وغايتها) ومما جاء فيها قوله: "إن جمعيتكم هذه أسست لغايتين شريفتين لها في قلب كل عربي مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة، وهما: إحياء مجد الدين الإسلامي، وإحياء مجد اللغة العربية"(١٠).

---

(٧) آثار الإبراهيمي ص١/ ١٩٩.

(٨) المرجع السابق ١/ ١٩٩، وانظر مبادئ ومجالات الإصلاح عند جمعية العلماء الجزائريين د. رشيد مياد، جامعة المدية، مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد التاسع، جوان ٢٠١٦م، ص١٩٥-١٩٦.

(٩) انظر المرجع السابق ١/ ١٩٩-٢٠٠.

(١٠) مجلة الشهاب الجزء التاسع المجلد التاسع غرة ربيع الثاني ١٣٥٢، وانظر الآثار ١/ ١٣٣.

ثم شرع في تفصيل الكلام على هاتين الغايتين.

ولخص ابن باديس أهداف الجمعية في قوله: "القرآن إمامنا، والسنة سبيلنا، والسلف الصالح قدوتنا، وخدمة الإسلام وإيصاله لجميع سكان الجزائر غايتنا"(١١).

ويرى بعض الباحثين أن هناك هدفاً آخر، وهو محاربة كل ما هو دخيل على الأمة الجزائرية، وخاصة الثقافة الفرنسية، والمناهج التي أدخلها الاستشراق والتبشير؛ كونهما ركيزتا الاستعمار في الجزائر، ولهذا لخص الشيخ محمد الميلي برنامج الجمعية في هدفين رئيسين، وهما: خدمة الإسلام، ومقاومة الاستعمار(١٢).

رابعاً: خلاصة النتائج لأعمال الجمعية: كما لخص الإبراهيمي أهداف الجمعية لخص -كذلك- نتائج أعمالها وذلك من خلال ما يلي:

١- الاستقرار والإصلاح الديني الإسلامي بمعناه الصحيح الواسع، وأساسه الرجوع إلى القرآن. ٢- إذكاء النزعة العربية في النفوس. ٣- تقوية الشعور السياسي، وتكوين رأي عام له. ٤- التوجيه إلى الشرق، والتنويه بتاريخه وأمجاده. ٥- إحياء الفضائل والأخلاق المتينة، وعقد جملتها بالقلوب لا بالألسنة. ٦- خطوات سديدة في بناء الأسرة على المحبة، وبناء المجتمع على التعاون. ٧- وضع المرأة المسلمة موضعها من الفطرة، ومنزلتها من الإسلام. ٨- التقليل من الافتتان بالحضارة الغربية. ٩- منع الإلحاد والتحلل. ١٠- إيقاف التبشير. ١١- التخفيف من ويلات الأمية. ١٢- نظام للوعظ والإرشاد تظهر روعته في كل رمضان على وجه الخصوص. ١٣- تشييد سبعين مسجداً على نماذج ما كان يؤديه المسجد من التربية. ١٤- مائة وبضع وأربعون مدرسةً ابتدائيةً مجهزةً أحسنَ تجهيزٍ لخمسين ألف تلميذ. ١٥- معهد ثانوي كامل الأدوات والمرافق يحتوي على ألف تلميذ(١٣).

---

(١١) الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٣٠-١٩٤٥م) أبو القاسم سعد الله ٣/ ٨٩ .

(١٢) انظر جهود جمعية العلماء الجزائريين في خدمة السنة النبوية، لـ: سيداتي ولد محمد عبدالله - مجلة الحضارة الإسلامية، عدد ٢٦، ربيع الثاني ١٤٣٦هـ، ص٣٩٩.

(١٣) انظر آثار الإبراهيمي ٤/ ١٧٨.

المبحث الأول: منهجُ الجمعيةِ النقديُّ في مقاومة الإلحاد

الناظر في تراث جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يلاحظ أنها سلكت في مقاومة الإلحاد منهجين متوازيين: أحدهما: منهج النقد، والنقض، والإبطال للإلحاد.

والثاني: منهج البناء، وهو مدار الحديث في المبحث الثاني.

وأما المنهج الأول فهو مدار الحديث في هذا المبحث، ويتمثل في بيان الجمعية لأسباب الإلحاد ومفاسده، وذم الداعين والمروجين له، وهذا ما سيتبين في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: بيانها لأسباب الإلحاد

من خلال النظر في تراث جمعية العلماء وما رقمته أقلام أعضائها يُلْحظ أنها -في حديثها عن الإلحاد- ترجع وجوده إلى أسباب، وأن هذه الأسباب قد تتداخل، وأن بعضها راجع إلى أسباب داخلية خاصة راجعة إلى نفوس معتنقيه، وبعضها راجع إلى أسباب خارجية اقتضتها ظروف تلك المرحلة وأحوالها.

ويلحظ -كذلك- أن ذكر تلك الأسباب يكون بإجمال تارة، وبتفصيل تارة أخرى.

وهذه الأسباب يمكن حصرها فيما يلي:

١- فساد التعليم. ٢- التأثر بثقافة الغرب. ٣- سوء التربية. ٤- الجهل بأنواعه. ٥-التقليد الأعمى.

٦- التبشير. ٧- الاستعمار. ٨- الفجوة بين العلماء والشباب. ٩-انتشار البدع والخرافات والطرق(١٤).

فهذه هي أسباب الإلحاد التي تراها الجمعية على سبيل الإجمال.

وهي مبثوثة في غضون الآثار العلمية للجمعية، أو لبعض أعضائها.

وأهم ما في تلك الآثار مما يوضح تلك الأسباب ما يلي:

أولاً: ما كان من الكلام عن الإلحاد قصداً: ويُعْنى بذلك ما جاء عن الجمعية من بيان موقفها من الإلحاد قصداً دون أن يكون الكلام عليه عرضاً ضمن سياقات مختلفة.

(١٤) انظر آثار الإبراهيمي ١/٣٩-٤٠، و١٨٦-١٨٨، و١٩١-١٩٩، وآثار الإمام ابن باديس ٤/٧٥ .

وأهم ما في ذلك ما جاء في موضعين:

الموضع الأول: ما جاء في (فلسفة جمعية العلماء)(١٥) التي صاغها رئيسها الثاني الإبراهيمي، وذلك في فقرة (موقف الجمعية من الإلحاد): وقد جاء تحت هذا العنوان ما نصه: "الإلحاد ضيف ثقيل حل بهذا القُطر منذ انتشرت بين أبنائه الثقافة الأوروبية من طريق التعليم اللاديني، أو من طرق التقليد الأعمى، وغذَّته غفلة الآباء والأولياء عن هذه الناحية الضعيفة من أبنائهم"(١٦).

ففي هذا النص ذكر لأربعة أسباب لحلول الإلحاد في الجزائر على سبيل الإجمال.

ثم انتقل الحديث إلى تفصيل تلك الأسباب، وذكر أسباب أخرى؛ فَبُيِّن فيه أن الناشئ الذي يتلقى التعليم في المدارس اللادينية يشعر من أول أيامه في التعليم بمنافرة ما يتعلمه في تلك المدارس من حقائق الكون -على سبيل المثال- لِمَا تَعَوَّد سماعَهُ من أهله، ثم يزداد ما يتلقاه في المدارس رسوخاً بما يقام عليه من الدلائل؛ فيزداد على قدر ذلك نفوراً من كل ما يسمعه من أهله، ثم ينقلب ذلك النفور من أهله ومما يسمعه منهم احتقاراً لهم، ولكل ما يلابسهم من عوائد وأزياء حتى ينتهي به الأمر إلى الدين؛ إذ قد يجد أبويه أو أقاربه لم يَنْفُذوا إلى لباب الدين، ومعرفته معرفة تثمر اليقين، وإنما قد تكون معرفة سطحية ممزوجة بالخرافات.

وإذا اجتمع إلى ذلك كونُه لم ينشأ على احترام الدين، ولم يُشْرَبْ حبَّه منذ الصغر، ولم يُرَوَّض على إقامة شعائره - كان ذلك داعيةً إلى إلحاده(١٧).

ثم "إذا تمادت به مراحل التعليم، وهو على هذه الحالة شب على الوحشة من قومه، ولغته، ودينه، وملك الإلحادُ عليه أَمْرَهُ إلا من رحم ربك"(١٨).

ثم يُعَقِّبَ على ذلك بأن هذه عاقبة طبيعية للإهمال المتفشي في الجزائر.

---

(١٥) انظر سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي الترقي بالعاصمة في سبتمبر سنة ١٩٣٥م، المطبعة الإسلامية الجزائرية قسنطينة ٥-٧٥، وانظر آثار الإبراهيمي ١/١٥٨-٢٠٠.

(١٦) آثار الإبراهيمي ١/١٩٤.

(١٧) انظر المرجع السابق ١/١٩٤.

(١٨) المرجع السابق ١/١٩٤.

ويعلَّلُ لذلك بأن كثيراً من الآباء يطلقون لأبنائهم الحبل على الغارب، ولا يحوطونهم بالرعاية اللازمة؛ لحماية دينهم، وأخلاقهم، وقوميتهم.

بل يَكِلُونهم إلى عاداتٍ فاسدة، ومؤثرات ضعيفة لا تقوى على مقاومة ما يَجِدُّ على مشاعرهم، ويغزو عقولهم كلَّ يومٍ من المؤثرات القوية الجذابة المسلحة بالدليل(١٩).

ثم ينتقل الحديث إلى سبب آخر للإلحاد ألا وهو الفجوة بين الشباب والعلماء، فقد جاء في موقف الجمعية من الإلحاد "أن من الأسباب التي مكنت للإلحاد في نفوس الشبان المتعلمين مجانبةَ علماء الدين الجامدين لهم، ونفورهم منهم"(٢٠).

ثم يُذْكَر بعد ذلك سببٌ آخر ألا وهو انتشار البدع والخرافات؛ حيث جاء في موقف الجمعية من الإلحاد أن لِفُشوِّ الخرافات، وأضاليل الطرق الصوفية بين الأمة أثراً كبيراً في فُشُوِّ الإلحاد بين أبنائها المتعلمين تعلماً أوربيًّا الجاهلين بحقائق دينهم.

وسبب ذلك -كما جاء في موقف الجمعية من الإلحاد- أن هؤلاء يحملون من الصغر أن هذه الأضاليل الطرقية هي الدين، وأن أهلها هم حملة الدين، فإذا تقدم بهم العلم والعقل لم تَسْتَسِغْها علومهم ولا عقولهم؛ فأنكروها حقًّا وعدلاً، وأنكروا معها الدين ظلماً وجهلاً.

وهذه إحدى جنايات الطرقية على الدين(٢١).

الموضع الثاني: ما جاء في مذكرة إيضاحية للمذكرات التي قدمها رئيس جمعية العلماء الإبراهيمي لوزارة المعارف المصرية ولمشيخة الأزهر الشريف، وللأمانة العامة لجامعة الدول العربية في يناير ١٩٥٣م.

وضمن هذه المذكرة فقرة بعنوان: (موقفها - أي الجمعية - من الإلحاد).

(١٩) انظر المرجع السابق ١/١٩٤.

(٢٠) المرجع السابق ١/١٩٥.

(٢١) انظر المرجع السابق ١/١٩٥.

وجاء تحت هذا العنوان ما نصه: "دخل داء النزعات الإلحادية إلى الجزائر في ركاب الاستعمار يتمشى مع الحضارة الغربية، ويتفشى في علومها وآدابها، وأمده الاستعمار بالقوة؛ ليغالب به العقائد الثابتة، وليضل به المهتدين، أو يحول بين الضالين وبين الهداية.

وقد حالت جمعية العلماء بينه وبين الانتشار بما أفاضت على العقول، وأشاعت في النفوس من الهدي المحمدي، وحاصرته بحقائق الإسلام؛ فحصرته في أضيق الأمكنة، وفي نفوس كأنها رموس"(٢٢).

فهذه أهم أسباب الإلحاد التي جاءت في غضون موقف الجمعية من الإلحاد قصداً.

ثانياً: ما كان من الكلام عن الإلحاد ضمناً لا قصداً: ويُعنى بذلك ما جاء من ذكر الأسباب الحاملة على الإلحاد في سياقات مختلفة.

وهذا كثير خصوصاً في آثار رئيس الجمعية الثاني الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

وفيما يلي بيان لأهم ما ورد في ذلك من الأسباب مع ملاحظة أن بعضها يتداخل مع بعض أحياناً:

١- **التبشير** ٢- **الاستعمار**: فهما في نظر الجمعية من أعظم أسباب حلول الإلحاد وهما سببان متداخلان.

وفي ذلك يقول الشيخ الإبراهيمي: "تشكو المسيحية من طغيان الإلحاد، وكثرة أسبابه، ولكنها تعمل على تمكين الإلحاد وتقوية أساسه؛ فهي تَنْصُر الاستعمار، وهو أبو الإلحاد، وأمُّه، وهو فاتح أبوابه، ورابط أسبابه.

وهي -أي المسيحية- تحارب الإسلام، وهو الحصن الحصين الذي يتحطم الإلحاد على صخوره، ولعمري ليس في التناقض أغرب من هذا".

ثم يختم كلامه في هذا السياق بقوله: "من أراد الحقيقة في كلمة فهي: أن المسيحية هي الاستعمار، وسيأكلها يوم لا يجد ما يأكله"(٢٣).

(٢٢) المرجع السابق ٤/١٧٠ .

(٢٣) المرجع السابق ٣/١٢٨.

ويقول في موضع آخر: "نَعيتُ على رجال الأديان أن يكونوا أعواناً للاستعمار الظالم الذي لا يقبله دين، وعِبْتُ على رجال المسيحية أن يمالئوا السياسة على اهتضام الإسلام، وأن يمارسوا التبشير في ظل الحكومة، وفي حماية قُوَّتها"(٢٤).

ثم يعلل لذلك بأن هذا غَمْزٌ في كرامة الدين الذي يدعون إليه؛ لأن سبيل الأديان إلى النفوس هو الاقناع لا الحيلة والقوة.

ويؤكد بأنه بيَّن لهم أن دين السياسة الإلحاد في دين الله، وأن السياسة إن أَكَلَتْ برجال المسيحية اليوم فستأكلهم غداً(٢٥).

ويقرر في موضع آخر في معرض كلام له عن الاستعمار على أن الاستعمار يجهد نفسه في عيب الشيوعية، ويقيم نفسه عدوًّا لها.

وما هو في الواقع إلا داعٍ لها بأعماله التي هي أبلغ من الأقوال.

ثم يؤكد ذلك بقوله: "إننا نَشْهَد، ونُشهد الله على أن الشيوعية إن حاربت الأديان أو الإسلام خاصة فهي تلميذة الاستعمار الفرنسي في ذلك؛ فهو الذي خطط لها، وفتح لها الباب، وضرب الأمثلة.

ومن البعيد أن يساوي التلميذ الناشئ شيخه المحَنَّكَ المحَكَّكَ، ومن العيب أن يعيب الأستاذ على تلميذه اتباع خطوته"(٢٦).

وبالجملة فإن كلام الإبراهيمي حول هذين السببين: التبشير والاستعمار يطول، وآثاره طافحة بذلك(٢٧)، وإنما المقصود ههنا بيان كونهما من أسباب الإلحاد في نظر جمعية العلماء.

---

(٢٤) المرجع السابق ٣/١٧٩-١٨٠.

(٢٥) انظر المرجع السابق ٣/١٨٠.

(٢٦) المرجع السابق ٣/١٧٥.

(٢٧) انظر على سبيل المثال المرجع السابق ١/٦٠-٦٣، و٢/١٣٦-١٣٧، و١٦٢، و١٦٩، و٢٠٥، و٣٣٤، و٣/٤٦ و٦٠-٩٥، و١٠٣، و١١٨، و١٣٨، و١٨٧-١٨٨، و٢١٧-٢١٩، و٢٣٣، و٢٤١، و٣٧١، و٤/٨٧، و١٠١، و٥٠٦.

٣- **الثقافة الغربية** ٤- **الجهل بحقائق الإسلام** ٥- **ضعف التدين**: فهذه أسباب ثلاثة، والكلام حولها يطول في مؤلفات أعضاء الجمعية.

يقول الشيخ الإبراهيمي في معرض مقال له بعنوان: (كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار): "في وطنكم هذا موجة من الإلحاد جاءت في ركاب الثقافة الغربية، ومكَّن لها القصد الصحيح من غايات الاستعمار، ومَهَّد لها في نفوس هذا الجيل جَهْلُهُ بحقائق الإسلام، وضعفُ صلته بالله"(٢٨).

٦- **انتشار البدع والضلالات والتفرق**: فذلك معدود عن علماء الجمعية من جملة أسباب وقوع الإلحاد خصوصاً ما كان من ذلك عند الطرق الصوفية.

يقول الإبراهيمي في معرض كلام له عن الدعوة، وضرورة ارتباطها بالقرآن الكريم: "إن شيوع ضلالات العقائد، وبدع العبادات، والخلاف في دين الله هو الذي جرَّ على المسلمين هذا التحلل من الدين، وهذا البعد عن أَصْلَيْهِ الأصليين(٢٩) هو الذي جَرَّدهم من مزاياه، وأخلاقه حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه"(٣٠).

ثم يقرر أن ذلك من أسباب قبول الإلحاد، فيقول: "وتلك الخلال من إقرار البدع والضلالات هي التي مهدت السبيل لدخول الإلحاد على النفوس، وهيَّأت لقبول الإلحاد"(٣١).

ثم يقرر أن الإلحاد لا يَنْفُذُ إلى النفوس المؤمنة، ويعلل ذلك بأن الإيمان حصن حصين للنفوس التي تحمله، ولكن الضلالات والبدع ترمي الجِدَّ بالهوينى، وترمي الحصانة بالوهن، وترمي الحقيقة بالوهم؛ فإذا النفوس كالثغور المفتوحة لكل مهاجم(٣٢).

---

(٢٨) جريدة البصائر ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٥٠م، وانظر الآثار ٣/٢٧١.

(٢٩) يعني بهما الكتاب والسنة.

(٣٠) آثار الإبراهيمي ٤/٢٠٢.

(٣١) المرجع السابق ٤/٢٠٢.

(٣٢) انظر المرجع السابق ٤/٢٠٢.

وهذا ما يؤكده ابن باديس كثيراً في تفسيره لآيات الكتاب العزيز كما في تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسْرَاء: ٥٦]؛ حيث أوضح أن اضمحلال العلم، وشيوع الجهل، وانحراف الطرق الصوفية أدى إلى تفشّي ظاهرةٍ خطيرةٍ ألا وهي التوجُّه بالدعاء إلى الأولياء والصالحين.

ويتحسر ابن باديس على هذه الحال التي جعلت الناس يلبسون الدين لبساً مقلوباً؛ فكان لذلك أثرٌ بالغٌ على عقول الناس وإراداتهم، ولهذا كان يرى أن البعد عن هداية القرآن، وفَهْمِه، وتدبرِه - قاد إلى التخلف، والفشل؛ لأن السنن الإلهية لا تحابي أحداً.

وهذا ما أَكَّدَه في تفسيره لآيات كثيرة، كما في تفسيره لقوله - تعالى -: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ [الأَحْزَاب: ٦٢]، وقوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الإسْرَاء: ٢٠]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإسْرَاء: ١٨] (٣٣).

وقال في موضعٍ آخر مبيناً أحد مسببات الإلحاد: "خامساً: قعود علماء الدين عن المقاومة، وسكوتهم عن المعارضة قَبْلَ جمعية العلماء" (٣٤).

٧- **ضعف الدعوة إلى الإسلام**: فذلك -كما يقرر الإبراهيمي- من أعظم ما أهاج دعايات الأديان الأخرى، وما تفرع عنها من مذاهب مادية تغري بالمادة وتؤلِّهها، ومن مذاهب فكرية تغري الفكر المسلم بالمروق من الدين وخلع رِبقتِه.

ثم يوضح أن هذه المذاهب تشعبت إلى شعبتين: إحداهما تسعى إلى إدخال المسلم في دين آخر، والأخرى تريد أن يخرج من الإسلام إلى الإلحاد المحض الذي يكفر بالأديان كلها (٣٥).

فهذه هي الأسباب التي ترى الجمعية أنها الممهداتُ للإلحاد، المُمَكِّناتُ له.

---

(٣٣) المرجع السابق ١/١٩٧.

(٣٤) انظر تفسير ابن باديس في مجالس التفسير ١٧-١٨، و٨٢، وص١٨٢-١٨٣، و٣٥٧.

(٣٥) انظر آثار الإبراهيمي ٤/٢٨٤.

وهكذا تعاونت هذه الأسباب في نشر الإلحاد، فالمستعمر سعى إلى نشر الإلحاد بين الشباب عن طريق المدارس وغيرها، وتوافق ذلك مع تخريفات الطرقيين، وغفلة الآباء والمربين، وضعف العلم والدعوة إلى الإسلام؛ فصارت موجة الإلحاد تتفشى في المجتمع، مما أدى إلى البلبلة في النفوس، والاضطرابات في العقول؛ حتى وجد من كبار المثقفين الجزائريين من أنكر وجود أمة حرة اسمها الجزائر في التاريخ؛ فدعوا إلى الاندماج في فرنسا، ورأوه سبيلاً وحيداً للحياة الفاضلة(٣٦).

المطلب الثاني: بيانها لمفاسد الإلحاد

أدركت جمعية العلماء منذ تأسيسها خطر الإلحاد، ومصادمته لمشروعها الإصلاحي، وعواقبه الوبيلة على الأفراد والمجتمع.

ولهذا سَلكت فيما سَلَكَتْهُ في منهجها النقدي الإبطالي له مسلك البيان لمفاسده الكثيرة المتنوعة.

ويدخل في هذا القبيل بيانها لآثاره، وتحذيرها منه، وذمُّها الأسبابَ الجالبةَ له، أو المفضية إليه، أو الممكنة له.

ومن هنا تنوع خِطابُها، واتسعت دائرة بيانها في ذلك الشأن لكل ما يَمُتُّ للإلحاد بصِلة.

وهذا الخطاب تارة يكون بالخُطب، وتارة بالمقالات عبر مجلات الجمعية، وتارة بالدروس، وتارة بالمحاضرات، وتارة باللقاءات المباشر ة.

وأعظم من تولى إصْر تلك المهمة رئيسها الثاني الناطق باسمها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

وفيما يلي إيضاح لمعالم ذلك المنهج النقدي الإبطالي بشيء من البسط.

أولاً: التحذير من الإلحاد صراحة: وذلك في مناسبات شتى، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء ضمن مقال للإبراهيمي يثني فيه على شيخ جامع الزيتونة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وتخلل ذلك المقال اقتراحات لتطوير التعليم الزيتوني؛ حتى يواكب الأحوال الحاضرة، ويقف في وجه الإلحاد.

(٣٦) انظر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأثرها في اللغة والأدب، صالح الجلعود ص١٢.

والشاهد ههنا قوله "وليعلموا[٣٧] أن خصوم الإسلام في ازدياد، وأن سير الإلحاد في اطِّراد، وأن العلوم الغربية زاحمت العلوم الإسلامية على نفوس شبابنا؛ فافتتنوا، وأن ضرائر العربية من اللغات الأوربية يتبرجن تبرج الجاهلية الثانية، وقد زَاحَمْنَها على ألسنة شبابنا؛ فافتتنوا، وأن التعليم في كلياتنا المشهور بوضعه الحالي لا يَكْفُل لنا سد أبواب هذه الفتن"[٣٨].

وبيَّن في موضع آخر أن أول واجبات عَالِم الدين في الإسلام حراسة الدين من أن تزيغَ عقائدُه عن مستقرِّها في القلوب؛ فَتَخْلِفها الوثنية، وأن العَالِمَ الدينيُّ حارسٌ، فإذا نام دخل اللص، والعالِم الديني رُبَّان، والرُّبَّان إذا لم يأخذ الحيطة غرقت السفينة.

ثم تطرق لِعِلَّة التقصير في حراسة الدين، حتى أصبح الجسم الإسلامي معرَّضاً للفناء والانهيار، مستعداً للانحلال والذوبان.

وقال بعد ذلك محذراً: "والإلحاد متربص بالباب، والأهواء غالبة، والشهوات متبرجة، والحصانة التي جاء بها الإسلام مفقودة"[٣٩].

وقال في موضع آخر محذراً من عواقب الإلحاد إذا تمكن: "ويل لهذا الشعب المضَلَّل الذي أفلس من الرجال أكثر من إفلاسه من المال، ورباه الإلحاد وفساد الأخلاق، ونقصان العقل"[٤٠].

ثانياً: ذم ما يتعلق بالإلحاد ومسبباته: وهذا الذم شامل للأفراد، أو الجمعيات، أو الأعمال، أو الأحزاب، أو نحو ذلك.

وأعظم من تناوله ذلك الذمُّ: الاستعمارُ، والتبشير، والطرقية، وما يستتبع هذه المذكورات من الآثار، والثقافات، والأسباب الأخرى.

---

(٣٧) يعني أساتذة الزيتونة.

(٣٨) آثار الإبراهيمي ٣/٥٥٠.

(٣٩) المرجع السابق ٤/٦٠.

(٤٠) المرجع السابق ٥/١٨٧.

وأقسى ما جاء من ذلك الذم ما كان من قِبَل رئيس الجمعية الإبراهيمي؛ فآثاره حافلة بذلك؛ فقد صب شواظ غضبه، ونيران غيظه على هذا الثلاثي المتمازج -كما يرى-.

وهذا الذم قد يشملها -جميعاً- سياق واحد، وقد يُفْرَدُ بَعْضُها عن بعض حسب مقتضيات الأحوال.

وفيما يلي بيان لأهم ما ورد في ذلك الشأن:

١- ما جاء في ذم الجمعية للتبشير، وبيان مفاسده: وأهم ما في ذلك موضعان: **أحدهما:** ما جاء في سجل مؤتمر جمعية العلماء، وذلك في فقرة (موقف الجمعية من التبشير) حيث جاء فيها ذم التبشير، وأنه بشكله الحاضر من نتائج التعصب المسيحي المسلح، ومولود من مواليد القوة الطاغية التي تسمي كلَّ ما ترضى عنه من الأعمال المنكرة حريةَ دِيْنٍ، وحريةَ فكرٍ، أو حريةَ تجارةٍ، وأنَّ التبشير أداة من أدوات السياسة في ثوب ديني، وشكل كهنوتي، وأن السياسة الغاشمة دفعته ليكون رائدَها في الفتح، وقائدَها في الاستعمار، وأَمَدَّته بالمعونة والحماية والصيانة والرعاية.

وترى الجمعية أن التبشير المسيحي يرى أن أعدى عدوٍّ له المصلحون المسلمون؛ لأنهم يدعون إلى الإسلام النقي الذي لا مطمع للتبشير في طرق حماه.

ثم تُبَيِّن الجمعية من خلال موقفها هذا علاقة التبشير بأسباب أخرى من شأنها أن تورث الفساد العقدي؛ فلا غرو -إذاً- أن يكون له تأثير بالغ في الجزائر(٤١).

وهذا هو المشار إليه ببيان موقف الجمعية في قولها: "ولقد كان من المعقول أن يثمر التبشير في القطر الجزائري، ويأتي بنتائج أكثر مما يأتي في الأقطار الأخرى؛ لعدة اعتبارات، أولها: تقادم عهده، وثانيها: صولة الاستعمارِ الذي يحميه، وثالثها: فشوُّ الجهل والأمية والفقر في الأمة التي هي فريسة التبشير، ورابعها: انتشار الطرق التي هي ظئر التبشير، وكافلته، والممهدة له حسًّا ومعنى ...." (٤٢).

وأما الموضع الثاني فقد جاء في مذكرة الجمعية الإيضاحية التي مرت الإشارة إليها(٤٣).

---

(٤١) سجل مؤتمر جمعية العلماء ضمن آثار الإبراهيمي ١/١٩٦.

(٤٢) المرجع السابق ١/١٩٦.

(٤٣) وهي التي قدمتها الجمعية لوزارة المعارف المصرية ومشيخة الأزهر والأمانة العامة لجامعة الدول العربية في يناير١٩٥٣م.

وقد جاء في أحد بنودها فقرة بعنوان (موقفها -أي الجمعية- من المبشرين المسيحيين).

وتحت هذا العنوان بيانٌ بأن الجزائر مركز لجمعيات التبشير المتعددة، وأن المال يصب على تلك الجمعيات هباءً، وأن هذه الجمعيات تتخذ من ذلك المال أدواتٍ للتنصير، وأن الاستعمار الفرنسي مسيحي نصراني؛ فهو بذلك يحمي كل حركة تبشيرية، ويمهد السبل، لانتشارها.

ومن هذه السبل -كما جاء في بيان الجمعية- خَلْقُ المجاعات في وطَن كله خير وفير؛ ليحمل العراة الجياع على الالتجاء إلى المبشرين(٤٤).

والتبشير -كما ترى الجمعية- له غايتان: أحدهما: إدخال المسلم في النصرانية، أو إخراجه من دينه إلى الإلحاد المحض(٤٥).

٢- ما جاء من ذم الجمعية للاستعمار، وبيانها مفاسدَه: فلقد كان لجمعية العلماء مواقف كثيرة من ذم الاستعمار، وبيان مفاسده، والتحذير منه.

وأهم ما في ذلك ما جاء من البيانات والمقالات الصادرة من رئيسها الإبراهيمي، وذلك في مواضع كثيرة من آثاره، فهو من أعلم الناس بمخططات الاستعمار الفرنسي، وأشدهم ضراوة عليه.

والفرنسيون يعلمون ذلك من الإبراهيمي، ويرونه أَلَدَّ أعدائهم.

ويتجلى ذلك من موقف المستشرق الفرنسي لويس ماسينون الذي يأتي على رأس مخططي الاستعمار الفرنسي، ومهندس السياسة الفرنسية في الشؤون الإسلامية.

والإبراهيمي يعلم منذ أن كان في الشام مدى تورط ماسينون في المشروع الاستعماري؛ حيث عمل ماسينون في القنصلية الفرنسية في بيروت، وكان مكلفاً بشراء ذمم من لا ذمة لهم حتى سمي (الصندوقجي)(٤٦).

(٤٤) انظر آثار الإبراهيمي ١٦٩/٤.

(٤٥) انظر المرجع السابق ١٩٧/١.

(٤٦) انظر المرجع السابق ٢٦/٣.

وقد كان ماسينون يحقد على الإبراهيمي؛ لأنه يتصدى لمخططاته، ويكشفها، وقد وصل هذا الحقد إلى درجة لم يستطع ماسينون معها كتمانه، فقال للدكتور جميل صيلبا: "إن هذا الرجل -الإبراهيمي- من ألد أعدائي"(٤٧).

ولهذا تظاهرت أقوال الإبراهيمي التي تحذر من الاستعمار، وتصفه بما يليق به من أوصاف الذم؛ فهو يرى أن الاستعمار الفرنسي جاء إلى الجزائر كما تجيء الأمراض الوافدة التي تحمل الموت وأسبابه، وأن الاستعمار سلٌّ يحارب المناعة في الجسم الصحيح، وأنه أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية، والبيان العربي ببلبلة لا يستقيم معها تعبير ولا فكر.

ويوضح -كذلك- أن الاستعمار لا يُشَرِّف فرنسا، ولا يمجد تاريخها بعد أن أبقى جروحاً دامية في نفوس المسلمين، وأن عوامله لبثت تهدم هيكل الإسلام ولا تبني، وترمي المقومات الإسلامية والخصائص العربية كلَّ يومٍ بفاقرة(٤٨).

ويقرر في موضع آخر أن عقلية الاستعمار حين تتصل بالإسلام عقلية لاتينية صليبية؛ فهي تتخبط بين جُنَّتين لا تنحسر إحداهما حتى تجلّل الأخرى وترين، وتتغذّى على عنصرين لا ينضب أحدهما حتى يَثِرَّ الآخر ويفورَ، وهي بهذين الدافعين احتلت الجزائر، ولهذين الباعثين عامل الاستعمارُ الإسلامَ هذه المعاملةَ الشنيعةَ، وبهذه الروح، ولهذا الغاية يعمل العاملون من رجال الاستعمار في أي مظهر ظهروا، وبأي اسم تكلموا، ولا عبرة بهذه الأغشية التي يموهون بها أعمالهم من العلم، والفن، والمدنية، والديمقراطية، والإنسانية؛ فتلك ألوان غير قارَّةٍ ولا ثابتة تخدع العين والأذن، ولكنها -كما يقول- لا تخدع الحقيقة(٤٩).

وفي كلمة له عن موالاة المستعمر يقرر أن الإسلام والاستعمار ضدان لا يلتقيان في مبدأ ولا غاية، ثم يعلل لذلك بأن الإسلام دين الحرية والتحرر، وأما الاستعمار فدين العبودية والاستعباد، وأن الاسلام شرع الرحمة والرفق، وأمر بالعدل والإحسان، وأن الإسلام يدعو إلى السلام، والاستقرار، وأما الاستعمار فيدعو إلى الحرب والتقتيل والتدمير والاضطراب.

---

(٤٧) مجلة الثقافة عدد ٨٧ الجزائر، مايو، يونيو، ١٩٨٥م، ص٧٥.

(٤٨) انظر آثار الإبراهيمي ٣/٤٦-٤٧.

(٤٩) انظر المرجع السابق ٣/١٧٦.

وأن الإسلام يُثْبت الأديان السماوية، ويقرر ما فيها من خير، ويحترم أنبياءها وكتبها، بل يجعل الإيمان بتلك الكتب أصلاً من أصوله.

بخلاف الاستعمار الذي يكفر بكل ذلك، ويعمل على هدمها خصوصاً الإسلام.

ثم يستنتج من خلال ذلك أن الاستعمار عدوٌّ لدود للإسلام، وأهله؛ فوجب اعتبار الاستعمار أعدى أعدائه، ووجب على المسلمين أن يطبقوا هذا الحكم الإسلامي في معاداة الاستعمار لا موالاته.

ثم بيَّن طرفاً من آفات الاستعمار كاحتضانه للتبشير، وتشجيعه للضالين المضلين من المسلمين، وكنشره للإلحاد بين المسلمين، وحمايته للآفات التي يحرمها الإسلام(٥٠).

ثم يتساءل قائلاً: "كيف نحالف الأقوياء وقد دلت التجارب أنهم إنما يحالفوننا؛ ليتخذوا من أبنائنا وقودًا للحرب، ومن أرضنا ميدانًا لها، ومن خيرات أرضنا أزوادًا للقائمين بها، ثم تنتهي الحرب ونحن المغلوبون الخاسرون على كل حال، وقد تكررت النذر؛ فهل من مدَّكر"(٥١).

ثم يوجه كلامه إلى عموم المسلمين محذراً ومنذراً؛ فيقول: "أيها المسلمون أفراداً وهيئات، وحكومات: لا توالوا الاستعمار؛ فإن موالاته عداوة لله، وخروج عن دينه، ولا تتولوه في سلم ولا حرب؛ فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم، وغنيمته في الحرب هي أوطانكم، ولا تعاهدوه؛ فإنه لا عهد له، ولا تأمنوه؛ فإنه لا أمان له ولا إيمان"(٥٢).

ثم يختم كلامه مبشراً بزوال الاستعمار، ومؤكداً على التحذير منه فيقول: "إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة؛ فلا يكتبْ عليكم التاريخُ أنكم زدتم في عمره يوماً بموالاتكم له، ولا تحالفوه؛ فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفَه قبل عدوه"(٥٣).

(٥٠) انظر المرجع السابق ٥/٦٨-٧٠.

(٥١) المرجع السابق ٥/٧٠.

(٥٢) المرجع السابق ٥/٧٠.

(٥٣) المرجع السابق ٥/٧٠.

وفي مقالة له عنوانها: (الاستعمار والشيطان) يستهلها بذكر أوجه الشبه بينهما؛ فيقرر أن الاستعمار كالشيطان ملعون بكل لسان، ممجوج اسمه في كل سمع، ممقوت في كل نفس، مستنكرٌ في كل عقل.

ثم يبشِّر بانتهاء حقبة الاستعمار، ويذكر الفرق بينه وبين الشيطان؛ فيذكر أن مما يُحْزِنُ الاستعمار أنه لم يضمن البقاء كالشيطان؛ فيكون من المُنْظَرِين إلى يوم الوقت المعلوم؛ لأنه -كما يقرر- قد أحاطت به خطيئاته، ورِيْعَتْ بالصيحة الكبرى حُجراته، وأمسى في حالة احتضار، وسيفارق الدنيا غير مأسوف عليه، ويستريح العالم من شروره(٥٤).

وبنحوٍ من ذلك ما جاء من كلمة له عن الجزائر، وما عانته من الاستعمار الفرنسي؛ حيث يقول في آخرها: "الاستعمار كل رجس من عمل الشيطان، ويمتاز الاستعمار الفرنسي بأن آثار الشيطان فيه واضحة، ومخايل الشيطان عليه لائحة"(٥٥).

ثم يعلل لذلك بأنه لا يقنع بالسيطرة على الظواهر، بل إلى مكامن السرائر؛ ليفسدها بالوهن، أو الانحراف عن سبيل الفطرة، ثم يذكر أمثلة عدة لذلك(٥٦).

ويقول في نداء تحذيري للشعب الجزائري: "ونعلم أن الاستعمار بطبيعته كائد ماكر، وأن له في الكيد والمكر طرائق تعجز الشياطين أن تأتي بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً..." (٥٧).

وبالجملة فإن كلامه عن الاستعمار، وذمه له، وتحذيره منه كثيرٌ جدًّا، وإنما المقصود ههنا بيان ذمه له، وتحذيره منه؛ لكونه رافداً من روافد الإلحاد.

٣- ما جاء في ذم الجمعية للطرقية والتحذير منها: فلجمعية العلماء في الجزائر موقف من الطرقية عموماً، وهناك دراسات خاصة حول ذلك الموقف(٥٨).

---

(٥٤) انظر المرجع السابق ٥/٩٥-٩٧.

(٥٥) المرجع السابق ٥/١٨٧.

(٥٦) انظر المرجع السابق ٥/١٨٧.

(٥٧) المرجع السابق ١/٢٠٥.

(٥٨) ومنها: العلاقة بين جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية (١٩٢٥-١٩٥٤م) وهي رسالة ماجستير أعدها نوار خرخاشي نبيل.

والذي يعني ههنا ما جاء من موقف الجمعية تجاه الطرقية مما له تعلق بالإلحاد؛ فالجمعية -كما مر في المطلب السابق- ترى أن الطرقية من أسباب حلول الإلحاد في القطر الجزائري لسببين: أحدهما: ما تحتوي عليه من بدع، وخرافات، وضلالات باسم الإسلام، وهي تخالف الشرع وينكرها العقل؛ فتكون بذلك فتنة وصدًّا عن الحق.

والآخر: ما كان من الطرقية من الممالئة للاستعمار الذي يرعى الإلحاد.

وبهذا تكون سبباً من أسباب الإلحاد، ورافداً من روافده.

ومن هنا انصب نقد الجمعية للطرقية، وتتابعت تحذيراتها من ضلالاتها، وعمالتها للاستعمار، ومواقِفها من الجمعية ومشروعها الإصلاحي.

ولم يَنْصَبَّ نقد الجمعية على ما لدى تلك الطرق من الصواب، أو لجميع الطرق التي لم تمالئ الاستعمار، أو التي كان لها جهاد ضده.

وإنما كان لتلك الطرق التي أوغلت في البدع، والخرافة، وزادت عليها بالعمالة للمستعمر(٥٩).

ولم تكن الطرق الصوفية موالية للاستعمار في بدايته إلا في أوائل القرن العشرين؛ حيث استسلم معظم زعماء وشيوخ الطرق الصوفية للأداة الاستعمارية بعد أن أصابهم الوهن؛ فتعاونوا مع الاستعمار، وخدموه لأسباب عدة، ودوافع مختلفة، إما خوفاً وتقيةً، أو رغبة في مال، أو جاه، أو منصب، أو نفوذ.

وهناك منهم من وقف موقف الحياد(٦٠).

ومن هنا توالت الحملات في الصحافة الإصلاحية على نقد الخرافات والأباطيل الطرقية.

وأهم من تصدى للطرقية، وعمالتها للاستعمار، وكونها من أسباب الإلحاد رئيس الجمعية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وآثاره حافلة بذلك سواء فيما كتبه عن الطرقية قصداً، أو ضمناً.

وأهم ما في ذلك ما جاء في مقالة له عنوانها: (إلى الطرقِيّين بمناسبة رسالتهم إلى الجمعية).

---

(٥٩) انظر ابن باديس حياته وآثاره د. عمار الطالبي ص٣٦٧، وآثار ابن باديس ١٥٩/٥، وسجل مؤتمر جمعية العلماء الجزائريين ص٣٧، والشرك ومظاهره لمبارك الميلي ص٢١٥، و٢٢٧، و٢٣٨، و٢٤٧.

(٦٠) انظر العلاقة بين جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية ص٤٧.

وقد تطرق في تلك المقالة إلى سبب الكتابة في هذا الموضوع، وأشار إلى السجال الذي حصل بين الجمعية والطرقيين، وما كان من الطرقية من إنشاء جمعية سموها: (جامعة اتحاد الطرق الصوفية) التي غمروها بكثير من الدعايات الكاذبة.

وبعد أن وصف تلك الجامعة قال مبيناً ما فيها من عوار: "نعم إنها تُوَحِّد معتنقيها في شيء واحد: في غايتها التي هي شر شرورها، وهو الاستسلام المطلق الذي تبتليهم به، وهذا البَلَهُ المستحكم الذي أنساهم خالقهم وحقائق دينهم وتاريخهم وأذهلهم عن أنفسهم، وانتزع منهم أخلاق الرجال، وعزائم الرجال، وصيرهم آلة مسخرة في يد الشيخ، وأبناء الشيخ والمقربين من الشيخ، ثم صيرهم آلة في يد كل ظالم للأمة ومعتدٍ على صفوفها، ثم مطية لكل راكبة، ثم حجة على انحطاط المسلمين، ثم حجة على الإسلام نفسه"(٦١).

ومن خلال ذلك يقرر أن هؤلاء الطرقيين يتحركون بدوافع خارجية؛ فصاروا بذلك مطايا للاستعمار، والقنطرةَ التي هوَّنت عليه العبور، وأنهم على خلاف ما وصف الله به عباده المؤمنين أعزة على الأمة، أذلة على المستعمرين، وأنْ ليس في صحائفهم السوداء موقف يعز الإسلام أو يرفع المسلمين، بل هم إلبٌ على دين الإسلام مع التبشير بالكفر؛ فأماتوا بذلك رهبة الإسلام ونخوة الإسلام بخضوعهم واستسلامهم كما أماتوا حقائقه بأساطيرهم وأوهامهم(٦٢).

وبعد أن استرسل في رد دعاويهم، وبيان ضلالاتهم قال مبيناً موضع الخلاف بين الجمعية والطرقيين: "إن الخلاف بيننا وبين هؤلاء ليس في مسائل علمية محصورة يعدونها في كل بلد بعدد، ويكثرون حولها اللغط؛ ليوهموا الأمة أن الخلاف علمي ... وما لهم وللعلم؟

إنهم ليسوا علماء حتى يغاروا للعلم، أو يقولوا فيه، أو يكونوا طرفاً من طرفي الخلاف في مسائله".

(٦١) آثار الإبراهيمي ١/٢٩٦.

(٦٢) انظر المرجع السابق ١/٢٩٦-٢٩٧.

ثم يوضح منشأ الخلاف، فيقول: "وإنما الخلاف بيننا وبينهم في طرقهم وزواياهم، وما يرتكبونه باسم المنكرات التي فرَّقت المسلمين، وجعلت الدين الواحد أدياناً، فقلنا لهم ولازلنا نقول: (لا طرقية في الإسلام) وأقمنا على ذلك الأدلة من الدينِ، وتاريخِه الأولِ، والعقلِ، ومقتضياتِه"(٦٣).

وقال في معرض كلام طويل في محاضرات له عن الاستعمار الفرنسي في الجزائر: "واستغل الدجالون من المتصوفة والدراويش الذين اصطنعتهم فرنسا؛ لغاية التخدير هذه الحالةَ النفسيةَ في الشعب؛ فتعاهدوه بمُنوِّمات ينسبونها إلى الدين، وما هي من الدين.

وفحوى تلك المنوِّمات أن الرضا بالاستعمار إيمان بالقدر (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) الكهف: ٥"(٦٤).

وفي السياق نفسه أوضح الإبراهيمي أنه اتفق مع ابن باديس قبل تكوين جمعية العلماء أنهما أمام استعمارين يلتقيان عند غاية: **أحدهما**: استعمار رُوحاني داخلي يقوم به -كما يقول- جماعة من إخواننا الذي يُصلُّون إلى قبلتنا باسم الدين، وغايتهم استغلال الأمة، ووسيلتهم صد الأمة عن العلم حتى يستمر لهم استغلالها.

وهؤلاء مشايخ الطرق الصوفية التي شوهت محاسن الإسلام.

والثاني: استعمار مادي تقوم به حكومة الجزائر باسم فرنسا، وغايته استغلال الأمة، ووسيلته سد أبواب العلم في وجه الأمة حتى يتم لها استغلالها.

ثم أوضح أن الاستعمارين يتقارضان التأييد، ويتبادلان المعونة كل ذلك على حساب الأمة الجزائرية؛ أولئك يضلونها، وهؤلاء يذلونها، وجميعهم يستغلونها.

ثم بيَّن أن رأيه ورأي ابن باديس استقر على البدء بالهجوم على الاستعمار الأول، وهو الطرق الصوفية -أو الطرقية كما يسميها أحياناً-.

---

(٦٣) انظر المرجع السابق ١/٣٠٣.

(٦٤) المرجع السابق ٥/١٢٣.

ثم علل لذلك بأنها هي مطايا الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا، ووسطها، وغربها[٦٥].

ثم أطال الكلام في نشأة التصوف، وأسبابه، وتاريخه، وانتهى به الكلام إلى التصوف الطرقي الحديث، وأبان عن أنه أصحُّ وسيلةِ معاشٍ، ومصيدة لابتزاز أموال العامة، وهناك التقت الطرقية مع الاستعمار في طريق واحد.

ثم يوضح صراحةً تلك العلاقة فيقول: "ابْحَثُوا عن تاريخ الاستعمار، واسْتَقْصُوا أنواعَ الأسلحة التي فتك بها في الشعوب – تجدوا فتكها[٦٦] في استعمال هذا النوع الذي يسمى (الطرق الصوفية).

وإذا خفي هذا في الشرق، أو لم تظهر آثاره جليةً في الاستعمار الإنكليزي – فإن الاستعمار الفرنسي ما رَسَتْ قواعدُه في الجزائر وشمال أفريقيا على العموم، وفي أفريقيا الغربية، وفي أفريقيا الوسطى إلا على الطرق الصوفية، وبواسطتها"[٦٧].

ويستدل على ذلك بكلمة قالها قائد عسكري فرنسي معروف أحاطت بالمعنى من جميع أطرافه، قال[٦٨]: "إن كسب شيخ طريقة صوفية أنفع لنا من تجهيز جيش كامل، وقد يكونون ملايين، ولو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيوش لما أفادتنا ما تفيده تلك الكلمة الواحدة من الشيخ.

على أن الخضوع لقوتنا لا تؤمن عواقبه؛ لأنه ليس من القلب، أما كلمة الشيخ فإنها تجلب لنا القلوب، والأبدان، والأموال أيضاً"[٦٩].

ثم أوضح الإبراهيمي أن هذه الكلمة تكشف الغطاء، وذكر أمثلة على ذلك، وأن الاستعمار الفرنسي ما زال يسمي هؤلاء المشايخ أحباب فرنسا.

ثم ذكر طرفاً من السجال الذي صار بين جمعية العلماء، والطرقية.

---

(٦٥) انظر المرجع السابق ١٤١/٥.

(٦٦) هكذا في الأصل، ولعلها: أَفْتَكها.

(٦٧) آثار الإبراهيمي ١٤٣/٥.

(٦٨) أي القائد العسكري الفرنسي.

(٦٩) آثار الإبراهيمي ١٤٣/٥.

والكلام في ذلك يطول، وإنما المقصود ههنا بيان الجمعية لخطر تلك الطرق التي تساند الاستعمار، وتترك وراءها آثاراً سيئةً يأتي على رأسها الإلحاد(٧٠).

٤- ما جاء في ذم الملاحدة: ومن ذلك قوله محذراً منهم ومن الثقة بهم: "لا نصدق اليوم الأمثال فينا، ولا نثق بزخرفة القادة الملحدين؛ فمحال أن يقودنا إلى الجنة من هو من أهل النار، وهيهات أن يقودنا إلى الحرية من هو عبدُ شهواته، ومحال على كرامتنا أن نبقى بعد اليوم كموناً يسقيه وعد، وإبلاً يوردها سعد(٧١)"(٧٢).

وقال في ذم الحزب الشيوعي في الجزائر: "أما الحزب الشيوعي الجزائري فلم يكن له أي تأثير على الشعب الجزائري، وذلك بسبب إلحاده"(٧٣).

وفي مقابل ذلك تراه يثني على من وقف في وجه الإلحاد أو مسبباته، وذلك كثير، كما في قوله في أرجوزته السينية التي بعثها إلى علماء نجد، وفي ضمنها ثناءٌ على مفتي الديار السعودية، ورئيس القضاء سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ومن ذلك قوله:

ياشيبة الحَمْدِ رئيس الرؤسا ... وواحد العصر الهمام الكَيِّسا
ومفتي الدين الذي إن نبسا ... حسبت في بردته شيخ نسا(٧٤)

إلى أن يقول:

بك اغتدى ربع العلوم مُؤْنِسا ... وكان قَبْلُ موحشاً مُعَبِّسا
ذللتها قَسْراً وكانت شُمُّسا ... فأصبحت مثل الزلال المحتسى

(٧٠) انظر المرجع السابق ٥/١٤٣-١٤٥.

(٧١) هذا تضمين للبيت المشهور الذي جرى مجرى المثل، وهو قول الشاعر:

أوردها سعدٌ وسَعْدٌ مشتملْ ... ما هكذا يا سَعْدُ تورد الإبلْ

وهو يضرب لمن أراد المراد بلا تعب، ولمن قَصَّر في الأمر. انظر مجمع الأمثال للميداني ١/٤٢٦.

(٧٢) آثار الإبراهيمي ٤/١٠٢.

(٧٣) المرجع السابق ٣/٢٨.

(٧٤) يعني به الإمام النسائي صاحب السنن.

رمى بك الإلحاد رامٍ قَرْطَسا وَوَتَرَتْ يدُ الإلهِ الأقوسا(٧٥)

والشاهد من ذلك: البيتُ الأخير، ومعناه أن الإلحاد رُمي بك، ووافق منك رميةً مسددة أصابته بمقتل، وتلك الرمية مؤيدة من عند الله –جل ثناؤه–.

وبالجملة فإن ما مضى من بيان الجمعية لمفاسد الإلحاد، وتحذيرها من غوائله ومسبباته هو أهم ما جاء في ذلك الشأن، أما التفصيل في ذلك فيطول، والمقام لا يتسع لذلك.

(٧٥) آثار الإبراهيمي ٤/١٢٩.

المبحث الثاني: منهجُ الجمعيةِ البِنائيُّ في مقاومة الإلحاد

لم تكتف جمعية العلماء الجزائريين في مقاومتها للإلحاد بمجرد نقده، وإبطاله، وذلك من خلال بيان أسبابه، والتحذير منه، وبيان فساده.

وإنما كان لها -مع ذلك- منهج بنائي يصحح المسار، وينهض بالأمة، ويجدد معالم دينها، ويوجد لها البدائل، ويدفع عنها الغوائل؛ فتكون بذلك قد جمعت بين العلاج والوقاية.

ولا ريب أن أخطر ما يواجه الأمة ما كان في شأن دينها، وعلى رأس تلك الأخطارِ الإلحادُ، وأن أعظم ما تملكه الأمة هو دينها، وعلى رأس قضايا الدين قضية الاعتقاد، وسلامته من الزيغ، وما يستتبع ذلك من اجتماع الكلمة، والحفاظ على الهُوية، والرقي في الكمالات.

ومن هذا المنطلق قام منهج الجمعية البنائي في مقاومة الإلحاد.

أما تفاصيل ذلك المنهج فكثيرة جدًّا، ومهما يك من شيء فيمكن حصرها في المطالب الثلاثة التالية التي يندرج تحتها الكثير من التعريفات مع ملاحظة تداخل بعضها مع بعض.

المطلب الأول: قيامها بالإصلاح العقدي

ويُقْصَد بذلك ما كانت الجمعية ترمي إليه من إصلاح ما فسد من عقائد الناس، بسبب ما أَلِفُوه من الخرافات، والأباطيل التي تسببت بها الطرقية، وما خلفته آثار التبعية العمياء للثقافة الأوربية، وما أحدثته من الهزيمة النفسية، والصدمة الحضارية.

وكان هدف الجمعية الأساس تجديد الدين، وإعادته إلى صفائه، ونقاوته، وفطريته، وسماحته، ومساوقته للعقل السليم، والفطرة السوية[٧٦].

وبهذا يتحقق لها تنقيةُ العقيدة من أوضار الضلالات وعلى رأسها الإلحاد، وصدُّ العوادي التي تريد أن تنال نيلها من العقيدة الحقَّة.

وقد سلكت لبلوغ ذلك الهدف طرقاً شتى، ويمكن حصرها من خلال ما يلي:

---

(٧٦) انظر آثار الإبراهيمي ١/١٣٥، و٣/١٢٦ و٤٣٦، والعلاقة بين جمعية العلماء والطرق الصوفية ص٦٧-٧٩.

أولاً: إحياء الطريقة السلفية في تدريس العقيدة؛ تلك الطريقة التي تقوم على الوضوح والبيان، وتُساوقُ العقل السليم، وتلائم الفطرة السوية، وتبعد عن الجفاء، والجفاف، والتعقيد، وتنأى عن البدع والمحدثات، وترتبط بالدليل من الكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح.

ومن هنا كانت جهود علماء الجمعية حثيثةً في سبيل التخلص من الطريقة الكلامية التي بليت بها الأمة قروناً متطاولة في كثير من أقطارها؛ إذ كانت العقيدة تدرس على وَفْق قواعد علم الكلام الذي أحدثه المتكلمون في أصول الدين من إثبات العقائد بالطرق التي أحدثوها، وأعرضوا بها عن هداية الوحيين(٧٧).

تلك الطريقة الكلامية التي تقوم على الحِجاج مقتصرة على الأدلة العقلية في مسائل المبدأ والمعاد، والثواب، والعقاب، والتعديل، والتجويز، والتحسين والتقبيح، والتوحيد، والتكفير، ونحو ذلك مما يدور النظر فيه على محض العقل(٧٨).

وهذه الطريقة الكلامية لا تثمر اليقين، ولا تُثَبِّتُ الإيمان كما ينبغي؛ لذلك كانت عناية علماء الجمعية بالغةً في التخلص من الإرث الكلامي الذي ران على طريقة تدريس العقيدة؛ إذ كانت تُدَرَّسُ على مقتضاه؛ فلا غرو –إذاً– أن يرى ابن باديس أن كَلَف علماء الكلام بالاستدلال العقلي، والاسترسال وراء مصطلحاتهم، وأقيستهم مظهرٌ من مظاهر هجر القرآن؛ ذلك أن القرآن –كما يقرر ابن باديس– قد بسط عقائد الإيمان بالأدلة العقلية القريبة القاطعة؛ فَهُجِرَت بحجة أنها أدلة سمعية لا تثمر اليقين، وحلَّ محلَّها الطرائقُ الكلاميةُ المعقدةُ، واصطلاحاتُها المحْدَثةُ مما يصعب أمره على أكابر الطلبة فضلاً عن العامة(٧٩).

ويرى ابن باديس –أيضاً– أن المتكلمين قد زهدوا في القرآن الذي عرض أدلة أصول الدين في غاية اليسر والوضوح، بحيث ينتفع بها العالم والعامي، والصغير والكبير مع شمول خطابها لجميع ملكات الإنسان: عقله ووجدانه، ومطالب روحه وجسمه.

---

(٧٧) انظر فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن عثيمين ص٧٦.

(٧٨) انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٢٠-٢١، ورسالة أبي حيان في العلوم، لأبي حيان التوحيدي ص٢١، والتعريفات للجرجاني ص١٨٥، والكليات للكفوي ص٨٦٨، والتاريخ لابن خلدون ص٣٥٠.

(٧٩) انظر تفسير ابن باديس مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص٢٥٠.

وهذا الزهد –كما يقرر ابن باديس– أفرغ أدلة العقيدة من محتواها الإيماني، ومن روحها التي تدفع إلى العمل، وجعل العقيدة صعبةً مستعصيةً على الفهم؛ بسبب تعقيدات علم الكلام، وطبيعة منهجه المتعالي؛ مما جعل الجهل بالعقيدة وآثارها مُستحكماً، وجعل آثار العقيدة قليلة الجدوى في نفوس معتنقيها(٨٠).

وكما أن لابن باديس موقفاً من علم الكلام، وطريقة تدريس العقيدة على ضوئه فإن للإبراهيمي موقفاً من علم الكلام كموقف ابن باديس، بل يربو عليه.

وقد بسط ذلك الرأي في مواضع شتى من آثاره؛ فهو ينكر ما أحدثه علماء الكلام من التأويل المذموم، ويتحسر على ما أضاعوه من جهد بلا طائل في ذلك السبيل، ويرى أن تدريس العقيدة على الطريقة الكلامية مخالف لطريقة السلف، وأن جدواها قليلة، وضررها أكثر من نفعها، وأن الأَوْلى والأوجب: الأخذ بطريق السلف، ويرى –كذلك– أن لعلم الكلام أثراً في تفرق الأمة بسبب ما أورثه من خلاف وتشتت(٨١).

وقد أبدى حزنه الشديد على أن تلك الطريقة التي عانت منها الأمة قروناً لازالت باقية إلى يومنا هذا.

يقول –رضي الله عنه– في ذلك: "ومن المحزن أن دراسة علم التوحيد حتى في كلياتنا الراقية كالأزهر، والزيتونة لا تزال جارية على تلك الطرائق، وفي تلك الكتب، ولا تزال تقرر فيها تلك الآراء، ولا تزال تذكر فيها أسماء تلك الفرق التي لم يبق لها وجود، ويَسْتَعْرِضُ سيدُنا المدرسُ تلك الآراء، ثم يدحضها، ويقيمها ثم ينقضها.

وتقتطع أوقات الطلبة المساكين في ذلك، ويا ضيعةَ الأعمار!" (٨٢).

إلى أن يقول ناعياً على تلك الطريقة: "أما الشبهات التي يوردها كلَّ يومٍ ملاحدةُ العصر، ومبشرو المسيحية على الإسلام، ويفتنون بها العلماء فضلاً عن العوام – فإن كلياتِنا العلميةَ الدينيةَ، ومدرسيها لا يعيرونها أدنى اهتمام، ولا يَعْمُرُون بها وقت الطلبة؛ فيا للفضيحة!"(٨٣).

---

(٨٠) انظر ابن باديس حياته وآثاره ٢٧٢/١.

(٨١) انظر آثار الإبراهيمي ١٦٣/١-١٦٤، و١٦٦، و١٦٨، و١٧٦، و٢٥٠/٢-٢٥١.

(٨٢) المرجع السابق ١٦١/١-١٦٧.

(٨٣) المرجع السابق ١٧٦/١.

ثم بيَّن بعد ذلك طريقة القرآن في تقرير التوحيد، وأنها جاءت بأجلى بيان، وأكمل برهان[٨٤].

وبالجملة فإن تقريراته حول علم الكلام كثيرة مبثوثةٌ في غضون آثاره[٨٥].

ولهذا فإن من أعظم ما قامت به جمعية العلماء إحياء طريقة السلف في تدريس العقيدة بعد أن كانت الطريقة الكلامية هي السائدة في قطرهم[٨٦].

وفي ذلك يقول الإبراهيمي: "حتى جاءت دروس الإمام ابن باديس؛ فأحيا بها طريق السلف في دروسه، ومنها هذه الدروس، وأكملتها جمعية العلماء[٨٧].

فمن مبادئها التي عملت لها بالفعل لزوم الرجوع إلى القرآن في كل شيء لا سيما ما يتعلق بتوحيد الله"[٨٨].

ثم قال منوهاً بتلك الطريقة: "فإن الطريقة المثلى للاستدلال على وجود الله، وصفاته، وما يرجع إلى الغيبيات لا يكون إلا بالقرآن؛ لأن المؤمن إذا استند في توحيد الله، وإثبات ما ثبت له، ونَفْي ما انتفى عنه – لا يكون إلا بآية قرآنية محكمة"[٨٩].

ثم يعلل لذلك بقوله: "فالمؤمن إذا سولت له نفسه المخالفة في شأن من أمور الآخرة، أو صفات الله – فإنها لا تسول له مخالفة القرآن"[٩٠].

ولا يعني بقوله الآنف: "بآية قرآنية محكمة..." أنه لا يرى الاستدلال على مسائل الاعتقاد إلا بالقرآن دون السنة.

---

(٨٤) انظر المرجع السابق ١/١٧٦.

(٨٥) انظر تفصيل رأيه في تلك المسألة في كتاب: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وموقفه من علم الكلام، دراسة وتحليل.

(٨٦) انظر آثار الإبراهيمي ٥/٣١٦.

(٨٧) يعني أن الجمعية أكملت السير على تلك الطريقة.

(٨٨) آثار الإبراهيمي ٥/٣١٦.

(٨٩) المرجع السابق ٥/٣١٦.

(٩٠) المرجع السابق ٥/٣١٦.

وإنما مقصوده أن سلطان القرآن قد عاد من جديد؛ بدلالة قوله: "وقد سلك علماء جَمْعِية العلماء في دروسهم الدينية كلها، وخطبهم الجُمَعِيَّة طريقةَ الإمام ابن باديس؛ فرجع سلطان القرآن على النفوس؛ فجزى الله أخانا ابن باديس عن الإسلام خير الجزاء؛ فإن من أحيا القرآن فقد أحيا الدين كلَّه"(٩١).

ويؤكد ذلك قوله بعد هذا الكلام: "وهذه دروس من دروسه ينشرها اليوم في أصل العقيدة الإسلامية(٩٢) بدلائلها من الكتاب والسنة الأستاذُ محمد الصالح رمضان أحد طلابه؛ فجاءت عقيدة مُثلى يتعلمها الطالب؛ فيأتي منه مسلم سلفي موحد لربه بدلائل القرآن كأحسن ما يكون المسلم السلفي، ويستدل على ما يعتقده في ربه بآية من كلام ربه"(٩٣).

وقال قبل ذلك منوهاً بتلك الطريقة، مغتبطاً بها: "وقد راجت هذه الطريقة، وشاعت حتى بين العوام، وإن كانوا لا يحسنون الاستدلال بالقرآن، وإن كان الاستعداد الكامن في الأمة للإصلاح الديني، وكثرة حفاظ القرآن فيها أعانا على تثبيت هذا الميل القرآني فيها؛ فأصبح العامي إذا سمع الاستدلال بالقرآن أو الحديث اهتز، وشاعت في شمائله علامةُ الاقتناع والقبول.

وهذه أمارةٌ دالةٌ على عودة سلطان القرآن على النفوس"(٩٤).

ولا ريب أن قيام الجمعية بتلك المبادرة الجبارة –وهي إحياء الطريقة السلفية في تدريس العقيدة– من أعظم المبادرات، وأجلّ الأعمال؛ إذ يدخل تحتها الكثير من تفاصيل الإصلاح، والنهوض بالتفكير، والتخلص من أوضار البدع، وما يستتبع ذلك من اجتماع الكلمة، والثقة بالإسلام، وصد عوادي الإلحاد، ومزعزعات العقيدة.

ثانياً: البدء بالإصلاح العقدي: فكما أن الجمعية عُنيت بالرجوع إلى الطريقة السلفية في تعليم العقيدة فكذلك كان من أول أولوياتها وأهم مهماتها أن يكون الإصلاح العقدي على رأس أعمالها.

---

(٩١) آثار الإبراهيمي ٥/٣١٦.

(٩٢) هذا الكلام ضمن كلمة كتبها الإبراهيمي مقدمة لكتاب (العقائد الإسلامية) لابن باديس.

(٩٣) آثار الإبراهيمي ٥/٣١٦.

(٩٤) المرجع السابق ٥/٣١٤، وانظر كلاماً نحو هذا في مواضع كثيرة من الآثار كما في ١/١٦، و٢١٠، و٢٨٤-٢٨٥، و٣٧٧، و٢/٢٢٧.

وهذا مبثوث في شتى أنظمتها، وسائر آثار أعضائها.

وأهم ما في ذلك ما جاء في (القانون الداخلي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

وهي أوراق جاءت في أربعة فصول، وهي موجودة ضمن آثار الإبراهيمي[٩٥].

وقد جاءت هذه الفصول على النحو التالي: الفصل الأول: فيما يرجع إلى نظام الجمعية وإدارتها. الفصل الثاني: لجنة العمل الدائمة. الفصل الثالث: مقاصد الجمعية، وغاياتها وأعمالها. الفصل الرابع: في مالية الجمعية.

والذي يعني من ذلك ما جاء في المادة ٦٤ من الفصل الثالث من أن الجمعية تجري في الشأن الديني من أعمالها على الرجوع إلى صريح الكتاب، وصحيح السنة، ثم الرجوع إلى الإجماع الثابت، والقياس الجلي فيما لا نص فيه، ثم الترجيح فيما اختلفت فيه الأنظار والاجتهادات.

ثم ذُكِرَت بعد ذلك مجموعة من المواد التي تحتوي على بعض مقاصد الجمعية وأعمالها ووسائلها.

ثم جاء في المادة ٦٨ أن الجمعية بهذه الوسائل تتوسل لإماتة البدع والخرافات المخالفة للدين، ولإحياء السنن الصحيحة الثابتة، ولمقاومة المحرمات الضارة كالخمر، والميسر، والزنا، والسرقة، وقتل النفس، والتزوج في العدة، وعضل البنات، وأكل أموال اليتامى، والرشوة، وحرمان النساء من الميراث، وحبس المطلقات عن التزوج، والإسراف في غير الخير، والعوائد الفاشية في المآتم والأعراس، والكذب، والغيبة، والنميمة، ونحو ذلك من المخالفات.

ثم جاء في المادة ٦٩ أن الجمعية تدرس أحوال المجتمع الجزائري من جميع النواحي الدينية والأخلاقية، وتعهد بذلك إلى من فيه الكفاءة من أعضائها بوضع برنامج واسع وافٍ مفصَّلٍ تدرس فيه أصول العلل وكيفية معالجتها[٩٦].

ثم جاء في نهاية هذه المادة ما نصه: "نبدأ بإصلاح العقيدةِ مثلاً، والعقيدة الحقة لها ميزان دقيق، وهو الكتاب والسنة؛ فإذا عرضنا أكثر عقائد الناس على ذلك الميزان وجدناها طائشة؛ فأيُّ سبيلٍ نسلكه لتقويمها إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة، واجتهدنا في إقامة الأدلة- فإن التأثير يكون قليلاً"[٩٧].

---

(٩٥) انظر آثار الإبراهيمي ١/٧٤-٩٠.

(٩٦) انظر المرجع السابق ١/٨٦.

(٩٧) المرجع السابق ١/٨٦.

ثم جاء في المادة نفسها تعليل ذلك بأن النفوس قد اصطبغت بعوائدَ، وتقاليدَ مستحكمةٍ، والفِطَرَ قد فسدت بما لابسها من خرافات وأوهام؛ فالواجب -إذاً- أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات بطرق حكيمة تَقْرُبُ من أذواق الناس؛ فإذا ماتت البدع والخرافات، وصَفَت من ذلك الشَّوْب سَهُلَ تلقينُ العقيدةِ الصحيحة، وتَلَقَّتْهَا النفوسُ بالقبول(٩٨).

ولا ريب أن إصلاح العقيدة، وتنقيتها مما علق بها من الشوائب، وتثبيتها في قلوب الناس أعظم ما يحمي من الإلحاد، ويُكْسِب ثقةَ المرءِ بدينه، فلا تزحزحه عوارض الشبهات، ولا عوارم الشهوات.

ولهذا جاء في الخطاب الذي ألقاه رئيس الجمعية الإبراهيمي في ١٣٥٢/١/٤هـ والمعنون بـ: "جمعية العلماء دعوتها وغايتها" ما نصه: "اختلت العقائد، ولابسها هذا الشوب من الخرافات والمعتقدات الباطلة؛ فضعفت ثقتنا بالله، ووثقنا بما لا يوثق به.

واختلت العبادات؛ فخوت النفوسُ من تلك الآثار الجليلة التي هي سر العبادة، والتي هي الباعث الأكبر على الكمال الروحي...".

إلى أن قال: "ولو كنا نعبد الله حق عبادته، ونبني العبادة الخالصة على عقيدة خالصة لكان من آثار تلك العبادة في نفوسنا ما يقيها من شر هذه العوائد العَادِيَةِ"(٩٩).

وما من ريب أن القيام بتلك المهمة -ألا وهي إصلاح العقائد، ونبذ الخرافات، ومنكرات العوائد- لأشق المهمات؛ لما فيها من نقل الناس من حال إلى حال، ومن عادات أَلِفُوها، وأَلْفَوْا آباءهم عليها؛ فكيف إذا كانت تتعارض مع مصالح أصحابها ونفوذهم، وبقاء جاههم؟

وهذا ما حصل مع جمعية العلماء؛ إذ واجهت ذلك الإصلاحَ طوائفُ المستعمرين والطرقيين.

وهذا ما عبرت عنه الجمعية على لسان الإبراهيمي إبان كان نائباً لرئيس الجمعية، وذلك كما جاء في فلسفة جمعية العلماء في فقرة: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كما هي".

---

(٩٨) انظر المرجع السابق ٨٦/١.

(٩٩) مجلة الشهاب الجزء التاسع غرة ربيع الثاني ١٣٥٢هـ، وانظر آثار الإبراهيمي ١٣٣/١-١٣٤.

وتحت هذا العنوان ما نصه: "نسمع نغمات مختلفة، ونقرؤها في بعض الأوقات كلماتٍ مجسمةً صادرةً من بعض الجهات الإدارية، أو الجهات الطرقية تحمل عليها الوسوسة وعدم التبصر في الحقائق من جهة، والتشفي من جهة أخرى.

هذه النغمات هي رمي جمعية العلماء تارة بأنها شيوعية، وتارة بأنها محركة بيد خفية أجنبية، وتارة بأنها تعمل للجامعة الإسلامية أو العربية(١٠٠) أو تعمل للوهابية(١٠١)"(١٠٢).

ثم يعلق الإبراهيمي على تهمة نشر الوهابية بقوله: "والطرقيون لا تهمهم إلا هذه الكلمة الأخيرة؛ فهي تقض مضاجعهم، وتحرمهم لذيذ المنام، وحالهم معها على الوجه الذي يقول فيه القائل:

وإذا تنبَّه رُعْتَهُ وإذا غفا سلَّت عليه سيوفَك الأحلامُ(١٠٣)

وكيف لا يَحْقِدُون على هادمة أنصابهم، وهازمة أحزابهم؟ فتراهم؛ لأضغانهم عليها يريدون أن يسبوها فيسبوننا بها من غير أن يتبينوا حقيقتها أو حقيقتنا، والجماعة جهَّال مُلْتَخُّون من الجهل وحسبهم هذا"(١٠٤).

ثم بين ما تلاقيه الجمعية من الجهات الإدارية والطرقية من التعنت، والرمي بالكفر والعظائم.

ثالثاً: إحياء مجد الإسلام، ولغته، وأمته: فذلك من أعظم ما ترمي إليه الجمعية من غاية؛ إذ هو يحمل على العزة، والكرامة، وإكبار دين الإسلام، وينأى بأهله عن الهزيمة النفسية التي ترى الأمم الأخرى بعين الإعجاب، وترى أمة الإسلام نظرة الدون والإزدراء.

وكل ذلك من أعظم الغايات التي تصد عوادي الإلحاد ونحوه.

---

(١٠٠) المقصود بها: الفكرة العربية؛ لأن الجامعة كمؤسسة لما تتكون بعد.

(١٠١) يقصدون بالوهابية: دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رضي الله عنه-.

(١٠٢) آثار الإبراهيمي ١/١٩٨.

(١٠٣) البيت لأشجع السلمي في مدح الرشيد، وقبله قوله:

وعلى عدوِّك يا ابنَ عمّ محمدٍ رَصَدَانِ: ضوءُ الصبحِ والإظلامُ

انظر: خزانة الأدب للبغدادي ١/٢٩٩.

(١٠٤) آثار الإبراهيمي ١/١٩٨.

ولهذا جاء في المادة ٦٦ من الفصل الثاني من القانون الداخلي للجمعية أن "الأمة الجزائرية أمة إسلامية عريقة في إسلامها؛ فالإسلام هو دينها الذي تفاخر به، وميراثها الخالد، والعربية لغة كتابها، ومستودع آدابها وحكمتها؛ فالجمعية تريد أن ترجع بهذه الأمة ومن طريق الإرشاد – إلى هداية الكتاب، والسنة، وسيرة السلف الصالح؛ لتكون ماشيةً في رقيها الروحي إلى شعاع تلك الهداية"(١٠٥).

وهذا ما تؤكد عليها الجمعية في كل مناسبة، وخصوصاً ما كان من النداءات والخطابات والمقالات التي تصدر عن رئيسها الثاني الشيخ الإبراهيمي؛ فهو يؤكد في كل مناسبة على تلك المعاني الرفيعة الشأن.

ومن ذلك قوله في خطابه المعنون بـ: "جمعية العلماء: دعوتها وغايتها": "إن جمعيتكم هذه أسست لغايتين، وهما: إحياء مجد الدين الإسلامي، وإحياء مجد اللغة العربية"(١٠٦).

ثم أوضح أن إحياء مجد الدين إنما يكون بإقامته كما أمر الله أن يقام، وذلك بتصحيح أركانه الأربعة: العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والخلق، ثم شرع في بيان تلك المعاني.

وقال بعد ذلك: "أما إحياء مجد اللسان العربي فلأنه لسان هذا الدين، والمترجم عن أسراره ومكنوناته؛ لأنه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر، ولأنه لسان محمد بن عبدالله –صلى الله عليه وسلم– صفوة الله من خلقه، والمثل الأعلى لهذا النوع الإنساني الذي هو أشرف مخلوقات الله، ولأنه لسان تاريخ الأمة، ومُجَلِّي مواقع العبر منه، ولأنه قبل ذلك وبعد ذلك لسان أمة شغلت حيزاً من التاريخ بفطرتها، وآدابها، وأخلاقها، وحكمها، وأطوارها، وتصاريفها في الحياة، ودولها في الدول، وخيالها اللامع الخاطف الذي هو أساس فنِّها وآرائها في عالم الكون والفساد"(١٠٧).

ثم يقول متحسراً: "وكلكم يعلم أن هذا اللسان ضاع من بيننا؛ فأضعنا بضياعه كل ذلك التراث الغالي النفيس من دين، وتاريخ، وأن اللغة هي المقوِّم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري.

(١٠٥) المرجع السابق ١/٨٤.

(١٠٦) المرجع السابق ١/٣٣.

(١٠٧) المرجع السابق ١/١٣٤.

وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى"(١٠٨).

ثم يقول حاثًّا على إحياء مجد اللغة: "ويأبى لكم الله أن تضيّعوا لغة كتاب الله، ولغة الإسلام، يأبى الله لكم إلا أن ترجعوا إليها لا لِتُحْيُوها، بل لِتُحْيُوا بها الفضيلةَ الإسلامية في نفوسكم، ولِتحيوا بها الحياة التي يريدها الله منكم"(١٠٩).

وما أشار إليه الإبراهيمي من ارتباط اللغة بالإسلام وعقيدته هو ما أدركه العلماء في القديم والحديث؛ حيث ربطوا ربطاً محكماً بين اللغة العربية والإسلام؛ ذلك أن أهم ما تعتد به الأمم من تراثٍ لُغَتُها ودينها؛ فبهاتين الوسيلتين تحقق ذاتها، وتتميز شخصيتها؛ فكل قضية تثار ضد العربية، ويراد من خلالها النيل منها، وإسقاط مكانتها هي في -الحقيقة- ضد الإسلام وعقيدته.

ولقد نص على هذه الحقائق غير واحد من علماء اللغة والشريعة(١١٠) كابن فارس(١١١)، والزمخشري(١١٢)، والثعالبي(١١٣)، وابن تيمية(١١٤).

هذا وإن ما مضى ليس هو كلَّ ما صدر عن الجمعية أو أحد من أعضائها في ذلك الشأن، وإنما هو نزر يسير من ذلك؛ إذ الجمعية وأعضاؤها كثيراً ما يؤكدون على هذه المعاني التي تشير إلى عظمة الإسلام وسماحته، وتُنَوِّه بعقيدته، وشرائعه، ومقاصده، وشموله، وصلاحه لكل زمان ومكان وأمة، وتدعو إلى الاعتزاز بأمة الإسلام، وتاريخه، وسلفه، ولغته(١١٥).

---

(١٠٨) المرجع السابق ١/١٣٤.

(١٠٩) المرجع السابق ١/١٣٤-١٣٥.

(١١٠) انظر مقالات في اللغة والأدب د. محمد محمد حسين، ص٧٥-٧٦، وفي سبيل لغة القرآن د. مرزوق بن تنباك ص١٥.

(١١١) انظر الصاحبي لابن فارس ص٣٥.

(١١٢) انظر المفصل في صنعة الإعراب لأبي القاسم جارالله الزمخشري ص٦.

(١١٣) انظر فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ص٥.

(١١٤) انظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ١/٥٢٧.

(١١٥) انظر استراتيجية ابن باديس في تدبر القرآن وأثرها في نهضة الأمة ص١٥-٢٠، و٣١، وآثار الإبراهيمي ١/١٠٧-١١٢، و١٢٦، و١٣٣-١٣٥، و٢٨٥-٢٨٩، و٢/١٠٩، و٢٩٨، و٣٢٨، و٤٧٢، و٣/٤٦-٤٨، و٧٨، و١٢٦.

وكل ذلك من أعظم عوامل البناء للمجتمع المسلم التي تكسبه المناعة من التأثر بالإلحاد ونحوه من الصوارف، والحوائل.

هذا وقد نتج عن هذا المنهج الإصلاحي للعقائد نتائج عظيمة، وأهمها انحسار المد الإلحادي، وما يستتبع ذلك من نضوب موارده التي كانت تمده، وتدعو إليه، وتسبب في وقوعه؛ فكان لهذا المنهج أعظم الأثر في حماية المجتمع الجزائري من الإلحاد، ورجوع كثير من المتلبسين به إلى الدين.

وهذا ما أشارت إليه الجمعية في بيان موقفها من الإلحاد، وذلك على لسان رئيسها الإبراهيمي، وذلك بقوله: "وقد كان لجمعية العلماء الآثار المحمودة في مقاومة الإلحاد بما يبثه رجالها من حقائق الدين، وبما يشرحونه في دروسهم ومحاضراتهم من مطابقة العقل، واتفاقه مع قضايا العلم، ومسايرته للحياة المدنية، وبما أرشدوا إليه الآباء من رعاية الأبناء، والظهور أمامهم بمظهر القدوة الصالحة في الدين والخير والفضيلة"(١١٦).

وبعد أن أشار إلى أن من جملة الأسباب التي مكنت للإلحاد في نفوس الشبان المتعلمين(١١٧) مجانبةَ علماءِ الدين الجامدين لهم، ونفورهم منهم – أوضح أن رجال الجمعية أدركوا أن هذه الطائفة معرضة للإلحاد، وأنها زهرة الأمة، وأنها جديرة بكل اهتمام وعناية، وأنها –وإن لم تسلم من طائف الإلحاد– سالمة من الجمود والتخريف، وأنها أقرب إلى الإصلاح والرجوع إلى الحق بما معها من إدراك صحيح، وبما فيها من ملكات الاستدلال؛ لذا مازج رجالات الجمعية هذه الطائفة، وخلطوها بأنفسهم، وعرفوا كيف يجذبونها إلى المحاضرات الدينية.

ثم يذكر نتيجة تلك الطريقة فيقول: "فكان لهذه الطريقة الرشيدة آثرها الصالح في تقويم الزائغين منها، وإرجاعهم إلى حظيرة الدين بكل سهولة، ونتجت عن ذلك نتيجة أخرى، وهي تحبيب هذه الطائفة في اللغة العربية، حتى أصبح الكثير منها معنيًّا بها، نادماً على ما فرَّط في جنبها، متداركاً –بقدر الإمكان– ما فاته منها"(١١٨).

(١١٦) آثار الإبراهيمي ١/١٩٥.

(١١٧) يقصد بالشبان المتعلمين: الذين درسوا في التعليم الحكومي، وأصابتهم لوثة الإلحاد.

(١١٨) آثار الإبراهيمي ١/١٩٥.

ثم يذكر في خاتمة بيان الجمعية عن موقفها من الإلحاد أنه قرأ في تلك الأيام مقالاً لكاتب تونسي ينعى فيه على جمعية العلماء إهمالها لهذه الجهة من جهات الفساد، وهي الإلحاد، وأن هذا الكاتب اعتذر عن علماء الزيتونة بأنهم -وإن قعدوا في نواحي الإصلاح التي تَخُبُّ فيها جمعية العلماء وتضع- قاموا بحرب الإلحاد بما شكرهم عليه.

ثم يعلق الإبراهيمي على ذلك بقوله: "ولكنه[١١٩] حصر عملهم[١٢٠] في هذا السبيل في خُطب جُمَعِيَّة ينددون فيها بالإلحاد ويحذرونه.

وفات هذا الكاتب الفاضل أن جمعية العلماء لم تسكت عن الإلحاد، بل هاجمته في أمنع معاقله، ونازلته في أضيق ميادينه"[١٢١].

ثم يختم تعقيبه على ذلك الكاتب بقوله: "كما فاته أن صرعى الإلحاد لا يَغْشَوْن المساجد؛ فما تأثير الخطب الجمعية التي تُلقى على المصلين؟

وهل يداوى المريض بتخدير الأصحاء من المرض أو أسباب المرض؟ ألا إن العالم المرْشِد كالطبيب لا ينجح في إنقاذ المريض من الموت إلا بغشيان الموت، ومباشرة جراثيم الموت"[١٢٢].

وهكذا يتبين من خلال هذا المطلب منهج الجمعية البنائي المتمثل بقيامها بالإصلاح العقدي، وأثر ذلك المنهج في مقاومة الإلحاد.

المطلب الثاني: قيامها بالإصلاح العلمي

والمقصودُ بالعلمِ: العلمُ النافعُ، وهو علم الكتاب والسنة، والموروث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو ما يورث الاعتقاد الحق، والعمل الصالح، والخلق الفاضل، والسيرة المستقيمة، والهداية التي تكفل السعادة العاجلة والآجلة، وما تقوم به من مصالح العباد والبلاد[١٢٣].

---

(١١٩) يعني به الكاتب التونسي.

(١٢٠) يعني عمل علماء الزيتونة في مقاومة الإلحاد.

(١٢١) آثار الإبراهيمي ١/١٩٥-١٩٦.

(١٢٢) المرجع السابق ١/١٩٦.

(١٢٣) انظر زاد المعاد لابن القيم ١/٢٨، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٢٩٨.

والمقصود بالإصلاح العلمي: العناية بالعلم، والقضاء على الأمية والجهل، وإصلاح طرائق التعليم، وحسن اختيار المناهج، والكتب التي تُدْرس، والحرص على إعداد المعلمين الأكفياء، وما جرى مجرى ذلك مما هو داخل في قبيل الإصلاح العلمي.

ولقد أدركت جمعية العلماء أن من أخطر ما تواجهه الأمة الجزائرية هو انتشار الجهل بين الجزائريين بسبب سياسة التجهيل التي يمارسها المستعمر ضد الشعب الجزائري؛ إذ كانت الأمية تربو على ثمانين في المائة في أوساط الجزائريين، والإحصاءات تشير إلى قلة الأطفال الدارسين خلال الفترة الاستعمارية، وقِلة المدارس الحكومية التي أنشأتها فرنسا لفئة قليلة من الجزائريين؛ نظراً لقلة المقاعد المدرسية.

وأخطر ما في ذلك أن برامج تلك المدارس لا تخلو من نشر الإلحاد، وتزييف الحقائق التاريخية، ومنع اللغة العربية والدين الإسلامي؛ مما حدا بالآباء إلى أن يرفضوا إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس.

ومن هنا أدركت الجمعية أهمية التعليم، وإصلاحه؛ فشرعت في إنشاء المدارس، وإيصال التعليم إلى أكبر عدد ممكن من أبناء الجزائريين.

وحرصت -كذلك- على التعليم في المسجد بكافة وسائله، وأسست مدارس للمهاجرين في فرنسا، وكان منهجها في ذلك يقوم على تعليم الدين والعربية، ومواجهة المنهج الاستعماري(١٢٤).

وكما كان من منهج جمعية العلماء البنائي في مواجهة الإلحاد وكافة الانحرافات قيامُها بالإصلاح العقدي - فكذلك كان من منهجها في ذلك الشأنِ القيامُ بالإصلاح العلمي في كافة المجالات؛ إذ لها جهد كبير متنوع في ذلك السبيل.

(١٢٤) انظر منهج جمعية العلماء الجزائريين في ممارسة النصيحة، وأثرها في إصلاح الواقع الجزائري أ.د. كمال لدرع، مجلة الشريعة والاقتصاد، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة، ضمن كلية الشريعة والاقتصاد، عدد يونيو ٢٠١٢م، المجلد الأول ص٢٦٢.

وذلك قائم على منهجية علمية منضبطة تتضح من خلال التتبع والاستقراء لتحريراتها، وأعمالِها المؤْدَعَةِ في آثارها، وآثار أعضائها العلماء، وخصوصاً ما رقمته يراعة رئيسها الأول ابن باديس، ورئيسها الثاني الإبراهيمي(١٢٥).

يقول ابن باديس في مقال له في مجلة الشهاب(١٢٦): "ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم؛ فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه مستقبل حياته، وما يستقبله به من علمه لنفسه، وغيره؛ فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلحِ التعليم"(١٢٧).

ثم يبين المقصود بالتعليم وما يصلحه، فيقول: "ونعني بالتعليمِ التعليمَ الذي يكون به المسلم عالماً من علماء الإسلام يأخذ عنه الناس دينهم، ويقتدون به فيه.

ولن يصلحَ هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته فيما كان يعلم صلى الله عليه وآله وسلم وفي صورة تعليمه"(١٢٨).

وأما الإبراهيمي فله تحريرات كثيرة في باب الإصلاح العلمي، وأهم ما في ذلك ما جاء في (عرض الحالة العلمية): وهي محاضرة ألقاها الإبراهيمي صباح اليوم الثالث من أيام الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد نشر في مجلة الشهاب الجزء التاسع، المجلد العاشر، والمؤرخ بـ: أو ت ١٩٣٤م.

وفي هذه المحاضرة بيان للمنهج الذي قامت به الجمعية للإصلاح العلمي، وهذا ما سيتضح من خلال ما يلي:

أولاً: بيانه أهمية الإصلاح العلمي: وذلك بقوله بعد ديباجة المحاضرة: "إن الإصلاح العلمي هو ناحية من نواحي الإصلاح الكثيرة التي يجب أن تعطيها جمعيةُ العلماءِ فَضْلَ اهتمامٍ واعتناءٍ.

---

(١٢٥) انظر الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دراسة مقارنة بين عبدالحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي ص٢٧٤-٢٨٥.

(١٢٦) الشهاب، الجزء الحادي عشر، المجلد العاشر، غرة رجب ١٣٥٣هـ.

(١٢٧) آثار الإمام ابن باديس ٤/٧٧,

(١٢٨) المرجع السابق ٤/٧٧، وانظر كلاماً نحوه للشيخ مبارك الميلي في كتابه الشرك ومظاهره، ص١٦١.

ولو لم يحدث من الحوادث ما جعل اتجاه الجمعية إلى الإصلاح الديني أقوى لكان الإصلاح العلمي أول ما تعالجه، وتبذل فيه جهودها؛ لأنه ألصق باسمها وأكثر ارتباطاً بحرفة رجالها"(١٢٩).

ثم يدلل على أهمية الإصلاح العلمي وقيمته بأن أكبر عناصر الإصلاح الديني الذي لا يمتري عاقل في لزومه إنما يستمد قوته من العلم والعلماء.

ثانياً: بيانه لمقصد الجمعية في تقديم الإصلاح الديني على الإصلاح العلمي: حيث أوضح أن ذلك ضرورة اقتضاها طغيان الفساد في العقائد حتى أصبح من آثاره التزهيد في العلم.

ثم يؤكد على أن ذلك التقديم لا يعني أن الجمعية أَغْفَلَتْ الإصلاح العلمي؛ فدروس رجال الجمعية وأسلوبهم في الدروس أمثلة من الإصلاح العلمي، ونهج نهجوه له، وطريقة تحتذى فيه.

وإنما المقصد أن الإصلاح الديني هو أظهر المقاصد التي امتازت به الجمعية وتجلت آثاره، واشتهرت أخباره حتى غطى على جميع المقاصد.

ثم يؤكد على أن من اللوازم القريبة لتلك المنكرات العقائدية التي تشتد الجمعية في محاربتها- التزهيدَ في العلم، وإفسادَ الفطر، وقتلَ الفضائل النفسية، وإزالةَ الثقة بالنفس، وإضعاف المدارك، وتخدير المشاعر.

وهذه الرذائل - كما يقرر - لا تجتمع واحدة منها مع مَلَكَةٍ علمية صحيحة؛ فكيف بها إذا اجتمعت؛ لذلك كان من الحكمة أن تَبْتَدِئَ الجمعية بتطهير النفوس من هذه الرذائل، وأن تكون دروس رجالها مؤديةً لغرضين متساوقين: لغرض الإصلاح العلمي بأسلوبها، ولغتها، ومناهجها، ونوع كتبها، ولغرض الإصلاح الديني بمعاليها وموضوعاتها، حتى إذا تهيأت لها الأسباب لدراسات منظمة وجدت نفسها قد فرغت من وسيلة هي أعضل الوسائل، وأعصاها على العلاج، وهي إعداد النفوس لانطباع الملكات العلمية الصحيحة منها(١٣٠).

ثالثاً: بيانه للسبل الموصلة لغاية الإصلاح العلمي: وقد ارتأى في ذلك تقديم مقترحين: **أولهما**: مؤتمر سنوي تعقده الجمعية بالعاصمة العلمية قسنطينة يحضره كل القائمين بالتعليم من أعضائها العاملين؛ كي تتلاقح أفكارهم،

(١٢٩) آثار الإبراهيمي ١/١٤٤.

(١٣٠) انظر المرجع السابق ١/١٤٤-١٤٥.

وتستفيض المباحث عن أصول التربية والتعليم، وأقوم طرائقها، وعن الأساليب التي تجمع بين العلم والعمل، ويكون من نتائج هذا المؤتمر توحيد التعليم، وهي أمنية المصلحين في الوطن.

وثانيهما: ملتقى أدبي وهي ما يعبر عنه بقوله: عكاظ علمي سنوي تقيمه الجمعية في مدينة الجزائر على أثر اجتماعها العام، وتمتد أيامه إلى ما فوق الأسبوع، ويُلقي فيه كل أعضائها محاضرات؛ ليتمرنوا على الخطابة في موضوعات الدعوة والإرشاد(١٣١).

رابعاً: العناية بضبط منهجية الاستدلال: وفي ذلك الشأن يقرر أن العلم إلى ما قبل النهضة الجزائرية، وقيام جمعية العلماء عبارةٌ عن أقوال يسلمها الشيخ لكتابه، ويسلمها التلميذ لشيخه، فإذا استقامت تراكيب الكتاب، وأفادت معنىً صحيحاً لم يكن في ذهن الشيخ قوةٌ على التماس الدليل، ولم يكن من حق التلميذ أن يطالبه بالدليل إذا تاقت نفسه إلى الكمال بمعرفة الشيء بدليله، أو انقدح في نفسه خاطرٌ من شكٍّ في صحة تلك القضية؛ فأراد أن يطرده بالدليل كما يطرد خاطر الشَّرِّ بالاستعاذة.

ثم يقرر أن التسليم المطلق دون بحث الدليل كان أصلاً من أصول الأدب في تلك المجالس العلمية؛ فكان منفذاً واسعاً دخلت من خلاله الخرافات والأحاديث الموضوعة، والمبالغات السخيفة، والآراء المضطربة، وكبائر الغلو، وموبقاته.

ويبين أن تلك النزعة –وهي نزعة التسليم– انتقلت من مشايخ الطرق؛ إذ كانت مسيطرة على مجالسهم وخلواتهم، وكانوا يأخذون أتباعهم بذلك؛ ليروِّضوهم على الطاعة العمياء لهم، على نحو كلماتهم التي سارت مثلاً (سلم تسلم) و (سلم للرجال تسلم في كل حال).

فكان من آثار تلك النزعة ما كان من الارتخاء المشاهد في الملكات العلمية، والفتور المستحكم الذي استحال إلى انحطاط وتخلف.

ثم يؤكد على أن اقتران العلم بدليله غُرَّةٌ في جبين النهضة العلمية، وأن نزعة الاستدلال قد هالت أُسَراء المألوف، وأحلاف الجمود؛ فأكبروها، وَوَسَموها بأنها دعوى اجتهاد، ودعوة إليه؛ ليصرفوا بها أنظار الأغرار عن الجمعية.

---

(١٣١) انظر المرجع السابق ١/١٤٤-١٤٥.

ثم يرد تلك الدعوى بقوله: "وما بالهم -عافاهم[١٣٢]الله- لا يفرقون بين الاستدلال والاجتهاد العلمي، ولو أنصفوا لعلموا أننا دعاة نظر لا دعاة اجتهاد، ندعو إلى العلم التطبيقي العملي، ونأخذ به أنفسنا قبل كل أحد، وأن تطبيق الجزئيات على الكليات ليس من الاجتهاد في شيء، وإنما هو روح العلم، ولا علم دونه"[١٣٣].

ثم يومئ إلى أن من ثمرات هذه النزعة الجديدة أن الطلبة صاروا عارفين بقيمة الدليل، ولا يقبلون الباطل حين يلقى إليهم بالسهولة التي كانوا يقبلونه بها، بل يترددون، ويتوقفون حتى يصلوا إلى الحق[١٣٤].

ولهذا كان من منهج الجمعية في الإصلاح العلمي إصلاحُ الكتب التي تدرس، والنأي بالعملية التعليمية عن الكتب المضَلِّلة.

وهذا ما أشار إليه الإبراهيمي في موضع آخر عندما أوضح أن عمدة الجمعية في التذكير على كتاب الله، وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- وأن معلِّمي الجمعية يلتزمون الأحاديث الصحيحة، ويعتمدون أمهات التفسير الموثوق بها؛ حتى راجت تلك الكتب، وعمرت الخزائن -كما يقول- واكتسحت تلك الكتبَ التي ضللت الناس، وقتلت مشاعرهم.

ومن آثار ذلك أن الأحاديث الصحيحة صارت تتداول على الألسنة، وفي المجالس، وتُرصَّع بها أحاديث الناس في مواطن الاستدلال، وأن رواية الحديث بدأت تتفشَّى[١٣٥].

ثم إن أسماء الكتب الموثوقة أضحت مألوفة عند الناس، ككتبِ الحديث وشروحها، كشروح الموطأ، وفتح الباري لابن حجر، وشرح النووي على صحيح مسلم، وعارضة الأحوذي.

وكذلك الكتب التي تعنى بالتحذير من البدع والمحدثات، كالبدع والنهي عنها لابن وضاح، والحوادث والبدع للطرطوشي، وغيرها[١٣٦].

---

(١٣٢) يعني بهم أصحاب الطرق الصوفية.

(١٣٣) آثار الإبراهيمي ١/١٤٨.

(١٣٤) انظر المرجع السابق ١/١٤-٤٩.

(١٣٥) انظر آثار الإبراهيمي ١/١٩٣.

(١٣٦) انظر تفصيل ذلك في بحث: مصادر الدرس التفسيري والحديثي عند علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وآثاره العلمية،

وهذا التقرير الذي يقرر فيه الإبراهيمي أهمية العناية بضبط منهج الاستدلال، وأثره على صحة التفكير، والحكم على الأشياء – من أعظم ما يقي من الإلحاد، وينقذ ضحاياه من التوغل فيه، ويعيدهم إلى نور الإيمان وبرد اليقين؛ إذ الخرافة والطرقية –كما تقرره الجمعية– من أعظم أسباب حلول الإلحادِ، والقضاءُ على الخرافةِ إسهامٌ في القضاء على الإلحاد.

وهذا ما أكد عليه رئيس الجمعية الإبراهيمي في موقف الجمعية من الإلحاد، عندما قال: "أرأيت أن القضاء على الطرقية قضاء على الإلحاد ببعض معانيه، وحسم لبعض أسبابه؟"(١٣٧).

خامساً: نقده التفرق في العلم، وإشادته بالاجتماع، وروح التآخي: فلذلك أعظم الأثر على الجو العلمي حطةً أو رفعةً.

وهذا ما أشار إليه الإبراهيمي عند موازنته قبل إنشاء جمعية العلماء وبعدها؛ وذلك بقوله: "وما دامت الموازنة بين أمسنا ويومنا، فقد كان علماؤنا بالأمس –ولا زالت بقاياهم إلى اليوم– وأمرهم فوضى، وشملهم شتيت؛ لم يُكَوِّنوا زعامة، ولم يعترفوا لزعيم.

وإني لأذكر ذلك السكون الذي يسود مجالسهم إذا اجتمعوا، وتلك النظرات التي يتبادلونها، وأذكر ذلك الملل الذي يغشى تلك المجالس، وأذكر تلك الأحوال التي تلبسهم إذا خلا كلُّ واحدٍ منهم بنفسه؛ فأصبح زعيم نفسه، وأذكر تلك الأساليب التي كنا نسمعها من عالم إذا سئل عن ترجمة عالم، وعن درجته في العلم، أو فتوى أفتى بها، أو رأي أبداه في مسألة نحوية، وأذكر تلك العبارات التي كانت تبدر منهم في تنقيص بعضهم بعضاً أمام العامة"(١٣٨).

د. نبيل بلهي، وجهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة السنة النبوية لـ: سيداتي ولد محمد عبدالله، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد ٢٦، ربيع الثاني ١٤٣٦هـ، ص٣٩٧-٤٠٤.

(١٣٧) آثار الإبراهيمي ١/١٩٥.

(١٣٨) المرجع السابق ١/١٥٢.

وبعد أن أبدى أسفه على تلك الحالة التي كانت هي الغالبة في مجالس التدريس أبدى ارتياحه للحالة الجديدة فقال: "وإنما نريد التنويه بهذه الحالة التي بدأت بشائرها تَخْفِقُ في جونا العلمي، مغتبطين بها، راجين لها النمو السريع، والرقي المستمر"(١٣٩).

ثم ذكر أن من ميزات الطور الجديد بعد قيام جمعية العلماء قيامَ روحِ التآخي المنبثَّةِ بين أعضاء الجمعية، والمحبة التي ينطوون عليها لبعضهم ولإخوانهم في العلم حتى وإن تجافوا في المبدأ.

وما يحصل منهم من غضب على عالم فإنما غضبهم بسبب خذلانه للحق، أو نصره للباطل لا غيره؛ فهو غضب لله.

ثم يقرر أن السبب الأقوى للتآخي هو الاحتمال، والاتصال، والتعارف الذي تسعى الجمعية إلى تقويته؛ وإذكاء هذه الروح بتقوية أسبابها؛ إذ هم القدوة، ومن العار -كما يقرر- أن يَدْعُوا الأمة إلى التآخي وهم غير متآخين(١٤٠).

سادساً: إشادته باقتران العلم بالفضائل: كعزة النفس، والعزوف عن الدنيا، والتخلق بمحامد الأخلاق، وإظهار صولة العلم في مواقف الدفاع عن الحق، فتلك -كما يقرر- صفات لازمةٌ للعلم؛ فمن عجز عن جمعها معه في نفسه كان علمه وبالاً عليه.

ثم يؤكد أن جمعية العلماء تفتخر بأن هذه الميزة الأخلاقية هي الصفةُ الغالبةُ على رجالها، وأن الأيام امتحنهتم فلم يزدهم ذلك إلا اعتصاماً بهذه الخلال، ولم يزدهم ذلك الاعتصام إلا إجلالاً ومهابة.

ثم أوضح ان خصومهم نبزوهم بكل نقيصة، فلم يوافقهم على ذلك أحد، بل كان العدو يرد ذلك قبل الصديق(١٤١).

سابعاً: إشادته بالتزام العربية، وإتقانها: وفي ذلك يقول -رضي الله عنه-: "ومن مميزات هذا الطور العلمي إتقان اللغة العربية علماً وتعليماً، وإجادتها تكلماً، وكتابةً، وخطابةً؛ فقد قامت هذه النهضة على ألسنة تنثر الدرر من

(١٣٩) المرجع السابق ١/١٥٢.

(١٤٠) انظر المرجع السابق ١/١٥٢.

(١٤١) انظر المرجع السابق ١/١٥٣.

العلم، وألسنة تنفث السحر من البيان، وأقلام تسيل رحمةً في مواطن الرحمة، وتمُجُّ السمام أو نثر السهام في مواطن الغضب للحق والذود عن الحق"(١٤٢).

ثم أشاد بعد ذلك في أثر رئيس الجمعية الأول ابن باديس البالغ في تكون هذه الملكات، وتقويم هذه الألسنة؛ إذ كان من تلامذته الكتاب، والشعراء، والمفكرون، والدعاة الذين هم دعائم الحركة الإصلاحية؛ حتى أصبح الطراز الأدبي الجزائري طرازاً مستقلاً يُحتذى به، ولا يحتذي(١٤٣).

بل صارت جمعية العلماء ميداناً للدراسات اللغوية، والأدبية، ولا زال في تراثها بقايا صالحة للبحث والدراسة(١٤٤).

ثامناً: بيانه لجوانب النقص في الحالة العلمية: فقد بيَّن الإبراهيمي في خاتمة محاضرته بعض النقائص التي اعترت الحالة العلمية، وحصرها بثلاث، وقال في شأنها: "ومن المؤسف أن ناشئتنا العلمية المستشرفة إلى الكمال لا تفكر في السلبي منها ولا الإيجابي، هذه النقائص الثلاث هي: ضعف الميل إلى التخصص – ضعف الميل إلى الابتكار – الكسل عن المطالعة"(١٤٥).

ثم أوضح أنه إذا كانت الأوليان متعسرتين؛ لفقد دواعيهما فإن الثالثة أقرب إلى الإمكان.

وقرر أن شبابهم المتعلم كسول عن المطالعةِ، والمطالعةُ نصف العلم أو ثلثاه، ثم أوصاهم بإدمان المطالعة، والإكباب عليها بانتظام؛ حرصاً على الوقت أن يضيع من غير طائل.

فهذه هي أهم معالم المنهج الإصلاحي العلمي التي أوضحتها الجمعية على لسان الإبراهيمي إبان كان نائباً لرئيس الجمعية وذلك من خلال محاضرته (عرض الحالة العلمية).

ولا يعني ما مضى أنه هو جميع ما يتعلق بالإصلاح التعليمي الذي قامت به الجمعية، وإنما هو أهم ما جاء في ذلك الشأن مما يناسب طبيعة البحث، وتعلقه بمنهج الجمعية البنائي في مواجهته للإلحاد.

---

(١٤٢) المرجع السابق ١/١٥٣.

(١٤٣) انظر المرجع السابق ١/١٥٣.

(١٤٤) انظر –على سبيل المثال– إلى رسالة: (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها في اللغة والأدب) إعداد صالح بن عبدالله الجلعود، المقدمة لشعبة الأدب والنقد، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، عام ١٣٩٣ – ١٣٩٤هـ.

(١٤٥) آثار الإبراهيمي ١/١٥٤.

وإلا فإن للجمعية تقريراتٍ كثيرة حول ذلك المنهج(١٤٦).

المطلب الثالث: قيامها بالإصلاح التربوي

لئن كان أولى أولويات الجمعية، وأهم مهماتها قيامُها بإصلاح العقائد وذلك بتنقيتها من أكدار البدع، والطرقية، وضلالات العوائد، ومنكرات المحدثات والأهواء، وقيامُها بالإصلاح العلمي، وذلك بإصلاح طرائقه ومنهجه الاستدلالي، وأدواته التي يقوم عليها – فإن قيامها بالإصلاح التربوي لا يقل عن الإصلاحين السابقين؛ بل هو مرتبط بهما، وقائم عليهما؛ إذ هو ثمرة من ثمارهما، ولازم من لوازمهما.

ولقد أوضحت الجمعية معالم المنهج الذي قام عليه مشروعها الإصلاحي التربوي.

وهذا المنهج مبثوث في شتى آثارِ أعضاء الجمعية، وبياناتها التي تصدر عنها.

وآثارُ رئيسيها: ابن باديس، والإبراهيمي –على وجه الخصوص– حافلةٌ بذلك.

وفيما يلي إيضاحٌ لأهم معالم ذلك المنهج الذي قامت به الجمعية في باب الإصلاح التربوي الذي يعد من أهم ما قامت به الجمعية من المنهج البنائي لمقاومة سائر الشرور والضلالات، وعلى رأسها الإلحاد.

أولاً: الحرص على التربية الإيمانية القرآنية: فقد كان من أهم ما حرصت عليه الجمعية، وقام عليه بناؤها حرصها على تلك التربية.

والمتأمل في آثار الجمعية وخصوصاً آثار ابن باديس والإبراهيمي يجد هذا المعلم لائحاً واضحاً.

ولقد كان لابن باديس علاقة بالقرآن في بواكير حياته حين ختم حفظ القرآن وهو في الثانية عشرة من عمره حتى أم المصلين في صلاة التراويح وهو في تلك السن.

وكان ذا نفس شفافة، وروحٍ متطلعة إلى المعالي، وذكاءٍ وقَّادٍ يستوعب أبعاد الفترة التي عاشها، وكان لديه وعي عميق، وحسن استشراف للمستقبل، وحكمة في حسن التعامل مع كافة المتغيرات.

وكان يرى ألا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هداية القرآن، والاستقامة على طريقته، وذلك هو ما يراه الهداة المصلحون قبله؛ لذا رأى أن هذا الأسلوب هو الأنجع لمجتمع كاد يقطع صلته بمرجعيته القرآنية؛ جرَّاء ضعف وخمود

(١٤٦) انظر المرجع السابق ١/١٥٨-٢٠٠، و ٢٠١-٢٠٧.

متطاول، ثم شراسة حرب الإبادة الثقافية التي شنَّتها قوات الاحتلال الفرنسي؛ حتى كاد مجتمع الجزائر أن يشرف على حضيض التلاشي والفناء.

وعلى ذلك الأساس بنى ابن باديس مشروعه الإصلاحي التربوي(١٤٧).

ومما خفف عليه وطأة هذه المهمة الثقيلة، وزوَّده بالأمل، وأمدَّه بالصبر – لطف الله، وتوفيقه، ثم إدراكه أن عزوف المجتمع الجزائري عن القرآن وهدايته لم يكن عن إعراضه عنه؛ إذ لا يزال يحتل في نفسه المكانة التي لا تعلوها مكانة، وإنما جاء من تراكم الجهل، وطغيان الاستعمار؛ فكان صوت ابن باديس جهيراً لإعادة تلك المكانة، مصحوبة بالعلم بالقرآن، والثقة به(١٤٨).

يقول –رضي الله عنه–: "وليكن دليلنا في ذلك، وإمامنا كتابُ ربنا، وسنة نبينا، وسيرة سلفنا؛ ففي ذلك كلِّه ما يُعرفنا بالحق، ويبصِّرنا في العلم، ويفهمنا في الدين، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة، والعزة، والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الآخرة، وليس هذا عن العاملين ببعيد، وما هو على الله بعزيز"(١٤٩).

ومن هنا استهل دروسه بتفسير القرآن بطريقة التدبر التي تحقق هذا الهدف الكبير؛ ليكون سبيلاً إلى التطبيق العملي؛ إذ هو يرى أن علاقة المسلم بالقرآن يجب أن تبنى على التفهم والتدبر لآياته، والتفطن لتنبيهاته، ووجوه دلالته، واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب، وما جاء في التفاسير المأثورة؛ للاستهداء بنوره في شتى مناحي الحياة.

وقد سار على هذا النحو منذ بداية شروعه في تفسير القرآن من ر بيع سنة ١٣٣٢هـ إلى أن انتهى من تفسيره في ربيع سنة ١٣٥٧هـ؛ حيث ظل ملتزماً التزاماً عجيباً بدرس التفسير الذي يلقيه بين صلاتي المغرب والعشاء(١٥٠).

(١٤٧) انظر عبدالحميد بن باديس مفسراً، لحسن سلوادي ص٤٠، واستراتيجية ابن باديس في تدبر القرآن ص٧-٩، و٢٧.

(١٤٨) انظر استراتيجية ابن باديس في تدبر القرآن ص١١.

(١٤٩) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص١٩٧.

(١٥٠) انظر استراتيجية ابن باديس ص٩.

وقد كان لتلك الدروس وطريقتها أبلغ الأثر في نفوس المتلقين لها، وأعظم الأثر في نهوض الأمة الجزائرية، وفي مقامة كافة الشرور وسائر الآفات التي اعترت الأمة آنذاك.

والذي يعني ههنا ما احتوت عليه تلك الدروس من الأثر التربوي، فلقد تضمنت نظراتُه العميقةُ في الآيات القرآنية توجيهاتٍ غايةً في السداد؛ إذ كان يسديها لجمهوره من الطلبة والعامة، وينصح بها المعلمين لينشؤوا عليها الصغار، فيشبوا أسوياء نجباء، ولم يكن يستثني من مهمته التربوية أحداً؛ إذ كان يعتقد أن النفس الإنسانية -كما أخبر عنها القرآن- بحاجة دائمة إلى التزكية بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، والعلوم النافعة حتى تبلغ أرقى درجات الكمال الإنساني(١٥١).

وكان -كذلك- يرى أن آيات الكتاب العزيز كفيلة برد جميع الشُّبهِ عند عروضها، وإبطال الاعتراضات عند ورودها؛ نظراً لما في القرآن من تأثير في النفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق(١٥٢).

وذلك مما جعل عوادي الإلحاد، وشبهاته، واعتراضاته تذهب عند مريد الحق جفاءً أمام ذلك الإعجاز القرآني.

وهذا ما حدا بوزير المستعمرات الفرنسية (لاكوست) يقول: "وماذا أفعل إذا كان القرآن أقوى من فرنسا"(١٥٣).

وهكذا كانت حال رئيس الجمعية الثاني الإبراهيمي، إذ كانت سيرته ضرب من العجاب، فقد أوتي ذاكرةً طيّعة، وحافظة لاقطة عجيبة يعزُّ نظيرها.

بل كان آية عجيبةً في سرعة الحفظ وضبطه، فلقد حفظ القرآن في التاسعة من عمره مع فهم مفرداته وغريبه، وحفظ جملة كبيرة من كتب النحو، والبلاغة، والغريب، والأدب، ودواوين الشعر قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره(١٥٤).

والذي يعني ههنا عناية البشير الكبرى بالقرآن، وحرصه البالغ على تربية الأمة على ضوء هديه.

---

(١٥١) انظر المرجع السابق ص٢١.

(١٥٢) انظر تفسير ابن باديس في مجالس التذكير ص٢٥٧-٢٥٨.

(١٥٣) انظر استراتيجية ابن باديس في تدبر القرآن ص٣١.

(١٥٤) انظر تفصيل ذلك في آثاره ١٦٥/٥، و٢٧٣-٢٧٤.

وآثاره الخمسة مليئة بذلك من خلال بيانه الأخَّاذ.

ومن الأمثلة على تلك العناية ما جاء في قوله في مستهل الكلام على (فلسفة جمعية العلماء): "كيف يشقى المسلمون وعندهم القرآن الذي أسعد سلفهم؟ أو كيف يتفرقون وعندهم الكتاب الذي جمع أولهم على التقوى؟". إلى أن يقول: "أما أن المسلمين الأولين سعدوا بالقرآن، واتباع الرسول هذا ما لا مراء فيه، وهو الحقيقة العارية التي جلاها التاريخ على الناس من جميع الأجناس، وزكاها بشاهدين من آثار العلم، ونتائج العقل"(١٥٥).

ثم بين ذلك الأثر البالغ، وأن ذلك ليس خاصاً بالمسلمين الأولين العرب فحسب، وإنما كان ذلك شاملاً للأمم التي دانت بالإسلام في قرونه الأولى، وتربَّت في كنف القرآن، وتحت رعايته، وطُبِعَت على غرار الهدي المحمدي، فقال: "فحرر القرآن أرواحها من العبودية للأوثان الحجرية والبشرية، وحرر أبدانها من الطاعة والخضوع لجبروت الكسروية والقيصرية، وجَلاَ عقولها على النور الإلهي، فأصبحت كشافةً عن الحقائق نزَّاعةً إلى المعالي مُقْدِمَةً على العظائم، وحدَّد لها لأول مرة في التاريخ صلة الروح بالجسم، ومدى تعاونهما في التدبير، وكيفية الجمع بين مطالبهما المتباينة، وعَلَّمها لأول مرة في التاريخ كيف يستغل الإنسان استعداده، وفكره؛ ففتح أمامه ميادين التفكر والاعتبار"(١٥٦).

إلى أن يقول: "وقد كان الناس قبل القرآن على جهل مطبق بهذا الاستعمار الفكري حتى بَيَّنَه القرآن الكريم، ووضع قواعده، وأرشدها لأول مرة في التاريخ أن الإنسان أخو الإنسان لا سيده ولا عبده، وأن فَضْلَه في المواهب، وأَنَّ تَسَاوِيَ الناس في استعمار الأرض تابعٌ لتساويهم في النشأة"(١٥٧).

ثم يواصل كلامه حول هداية القرآن، وأثره في النفوس، فيقول: "وبهذه الروح اندفعت تلك النفوس بأصحابها تفتح الآذان قبل البلدان، وتمتلك بالعدل والإحسانِ الأرواحَ قبل الأشباح، وتعلن في صراحة القرآن وبيانه حقوق الله على الإنسان وحقوق الإنسان في ملك الله، وحقوق الإنسان على أخيه الإنسان"(١٥٨).

---

(١٥٥) آثار الإبراهيمي ١/١٥٨-١٥٩.

(١٥٦) المرجع السابق ١/١٥٩.

(١٥٧) المرجع السابق ١/١٥٩.

(١٥٨) المرجع السابق ١/١٥٩

وبعد أن بيَّن أثر القرآن على أهله والمؤمنين به أوضح أن المقصود بذلك ليس تلاوة القرآن ولا حفظه فحسب، وإنما السر كل السر –مع ذلك– في تدبره، وفهمه، واتباعه، والتخلق بأخلاقه.

وبيَّن أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي اتبعها المسلمون الأوائل؛ فسعدوا باتِّباعها، وأن هذا هو الإسلام متجلياً في آيات القرآن: دين واحد، جاء به نبي واحد عن إله واحد.

ثم يقول متسائلاً: "وما ظنك بدين تَحُفُّه الوَحْدَة من جميع جهاته؟ أليس حقيقاً أن يسوق العالم إلى عمل واحد، وغاية واحدة، واتجاه واحد على السبل الجامعة في عقائده وآدابه؟

أليس حقيقاً أن يجمع القلوبَ التي فرقت بينها الأهواءُ، والنفوسَ التي باعدت بينها النزاعاتُ، والعقولَ التي فرق بينها تفاوتُ الاستعداد؟".

ثم يجيب قائلاً: "بلى والله؛ إنه لحقيق بكل ذلك"(١٥٩).

ويقرر في موضع آخر في معرض كلام له عن موقف الجمعية من التعليم: أن جمعية العلماء على ما خدمت به القرآن من تبيين حقائقه للناس، ونشر فضائله بينهم، وتحبيبه إلى نفوسهم وشرح مزاياه فيهم، وجَعْلِه أساساً في التذكير والوعظ تتمنى لو تنفتح لها السبل، ويخف عنها ما تلاقيه من معاكسة الطرقيين وغيرهم لها – لتقوم كل القيام بما يجب عليها للقرآن من حق؛ فتنشئ من أبناء الأمة جيلاً قرآنياً يتقن حفظ القرآن وأداءه، ويحسن فَهْمَه والعمل به، ويتخلق بأخلاقه، ويتربى على هديه، ثم ينشر بواسطته دين الله في أرض الله(١٦٠).

هذا وقد كانت هذه الأمنية في بدايات قيام جمعية العلماء، وقد حقق الله للشيخ هذه الأمنية، ورأى من جمعية العلماء فيما بعد ما قَرَّتْ به عينُه.

ولا ريب أن ذلك العمل من أعظم ما يقاوم به الإلحاد.

ثانياً: حثها الأولياءَ على القيام بالتربية الصالحة: فلئن كانت الجمعية ترى أن من الأسباب التي مكنت للإلحاد جهل الآباء بالدين، وكونهم لا يعرفون منه إلا قشوراً ممزوجة بالخرافات، ويطلقون لأبنائهم الحبل على الغارب، ولا

(١٥٩) المرجع السابق ١/١٦١.

(١٦٠) انظر المرجع السابق ١/١٩٢.

يحوطونهم بالرعاية اللازمة لحماية دينهم وأخلاقهم – فإن الجمعية كثيراً ما تهيب بالآباء أن يقوموا بواجبهم تجاه أبنائهم.

وهذا ما أكدت عليه الجمعية في موقفها من الإلحاد، فبعد أن ذكرت جملة من أسبابه وما تبذله في سبيل مقاومته أكدت دور الآباء في ذلك كما في قولها: "إن هذا الجهد الذي تجهده جمعية العلماء في مقاومة الإلحاد هو غاية الممكن في هذا الباب.

أما الدور الذي يجتث هذه العلة من أصلها فهو قيام الآباء بواجبهم من التربية الدينية الصحيحة.

وما دام أبناؤنا يأوون إلى بيوتٍ قواعدُها الجهلُ والخرافاتُ، وقعائدها الجاهلات الخرافيات فنحن أمام حالين لا ندري أيهما أشر؟ شر الأمية ومعها التخريف، أو القراء ومعها الإلحاد"(١٦١).

وليس هذا هو ما تخاطب به الجمعية الأولياء كي يقوموا بالواجب المناط بهم تجاه أبنائهم فحسب، بل كثيراً ما تذكِّرهم بذلك الواجب إما عبر نداء عام، أو عبر خطابات مباشرة.

ومن ذلك ما جاء في مقال لرئيس الجمعية الإبراهيمي بعنوان: (ثلاث كلمات صريحة) وهي موجهة إلى الأمة، وإلى التلامذة الجزائريين في جامعتي الزيتونة والقرويين، وإلى أولياء التلامذة.

والذي يعني ههنا هو كلمته للفئة الثالثة؛ حيث ابتدر الحديث معهم بأن توجيه الأولاد في مقتبل أعمارهم واجبٌ على الأولياء ديناً، وعقلاً، وعادةً.

ثم أوضح أنَّ مِن أَبَرِّ البرِّ توجيهَ الأولاد للعلم؛ إذ في ذلك مرضاة لله، ولرسوله، وصالحي المؤمنين؛ لأن أبناء اليوم هم ذخائر الوطن في المستقبل.

ثم قرر أن صيانة الأبناء عن لصوص العقول فريضة على الأولياء، وأوضح أن لصوص العقول أفتك من لصول الأموال، وأشدُّ منهم عَيْثاً وإفساداً.

ثم بيَّن معنى اللصوصية هنا بقوله: "وإن اللصوصَ الذين أعنيهم لصوصُ عقولٍ يتحكمون بأبنائكم في مطارح هجرتهم إلى العلم، وفي مسارح غيبتهم عنكم، فَيُضِلُّونَهم عن سواء السبيل، ويوجهونهم لغير الجهة التي أردتم، ويأتونهم –

(١٦١) المرجع السابق ١/١٩٥.

كالشيطان- من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، ويصدونهم عن ذكر الله، وعن الصلاة، وعن العلم إلى أحاديث يُزَوِّقُونها لهم تملأ السمع، ولا تملأ العقل، ويَصرِفُونهم عن كتب العلم، ودروس العلم إلى جرائد حزبية مملوءة بالكذب، والنقائص، والمهاترات، والسباب"(١٦٢).

ثم بيَّن أن هؤلاء اللصوص نالوا مأربهم في إفساد عقول الأبناء في غفلة من الآباء، وأن هؤلاء اللصوص يغدون على الأبناء ويروحون، ويقعدون لهم بكل صراط، ويتنقلون بهم في الإفساد وتضييع الأوقات، وتعطيل المواهب من منزلة إلى منزلة حتى يقتلعوهم من حلقة الدرس.

ثم قرر أن جمعية العلماء تقوم بأمانة الله في توجيه هذا الجيل للدين والعلم، وهي المؤتمنة على عقول الصغار حتى لا تضل ولا تطغى، وعلى عقائدهم حتى لا تفسد ولا تزيغ.

ثم يختم الحديث مناشداً الآباء أن يقوموا بواجبهم تجاه أبنائهم بقوله: "فأعينوها(١٦٣) -أيها الآباء- بقوة تجعل بين أبنائكم وبين أولئك اللصوص ردماً، وما هذه القوة بِزُبَرِ الحديد، ولكنها بالإعانة والتأييد، وبالمراقبة والتشديد، وبالوصاية اللازمة الحازمة للتلامذة"(١٦٤).

ثالثاً: حثها المستمر لمعلميها على القيام بواجب التربية: فجمعية العلماء تدرك عظم دور المعلم في التربية؛ فكان من منهجها في الإصلاح التربوي حرصها الشديد على إعداد المعلمين الأكفياء، وتوجيههم المستمر؛ كي يقوموا بواجب التربية إلى واجب التعليم جنباً إلى جنب.

ولهذا تتابعت وصايا الجمعية إلى المعلمين في هذا الشأن منبهة لهم على هذا الواجب العظيم، مثيرةً هممهم للقيام به، مبينةً لهم ما يترتب على ذلك من الخير العظيم والنفع، محذرة لهم عن التقاعس في أداء ذلك الواجب وما يترتب على التقصير فيه من العواقب الوبيلة، والشر المستطير، والذي من أشد آثاره فساد العقائد، وأعظمها شيوع الإلحاد.

---

(١٦٢) المرجع السابق ٣/١٣٦.

(١٦٣) يعني جمعية العلماء.

(١٦٤) آثار الإبراهيمي ٣/٣١٨.

وأهم ما في ذلك تلك الرسائل التي وجهها رئيس الجمعية الإبراهيمي وعنون لها بـ: (مدارس جمعية العلماء) و(إلى أبنائنا المعلمين الأحرار) و(كلمات واعظة لأبنائنا الأحرار) و(حقوق المعلمين الأحرار على الأمة) (١٦٥).

ويعني الإبراهيمي بالمعلمين: معلمي جمعية العلماء التي يقول عنها: "ونعني بالمعلمين هذه الطائفة المجاهدة في سبيل تعليم أبناء الأمة لُغتهم، وتربيتهم على عقائد وقواعد دينهم، وضبطهم على قالب آدابه وأخلاقه.

هذه الطائفة الصابرة على مكارم الحياة كلِّها، المحرومة من الراحة والاطمئنان في جميع أوقاتها"(١٦٦).

إلى غير ذلك من الأوصاف التي أطلقها على معلمي الجمعية وما يلاقونه صابرين محتسبين من ضيق العيش، وفقدان الحافز.

وهذه الطائفة هي عماد جمعية العلماء في أجل وظائفها وهي التربية والتعليم وقد نادى الإبراهيمي بأعلى صوته لإعطاء هؤلاء المعلمين حقوقهم الحسية والمعنوية(١٦٧).

أما وصاياه لهم فكثيرة متنوعة، وجُلُّها يدور حول أن يكونوا قدوة حسنة لطلابهم، وأن يربوهم على الفضائل؛ لذا فهو يذكرهم بعظم مسؤوليتهم، ويحذرهم من أن تُؤتى الأمة من قِبلهم، ويوطِّنهم على شدة ما سيلاقونه من العنت في سبيل النهوض بالطلاب، ويذكرهم بأن مدارس الجمعية التي تزيد على المائة بالعشرات ستسفر -بإذن الله- في بضع سنين أخرى عن مئات المدارس؛ لأن تلك هي رغبة المصلحين؛ فلا يطفؤها تعنت الظالمين ولا ما يقوم به الماكرون من المسَخَّرين من الاستعمار لحرب هذه النهضة العلمية.

وفي آخر مقالته (مدارس جمعية العلماء) يقول مستثيراً همة معلمي الجمعية، ومُحَرِّكاً نخوتهم: "أما دعائم هذا البناء التي تُمْسِكُه أن يزول، وتصونه أن يختل أو يَحُول فهم أشبالُ الغابِ، وحماةُ الثغورِ، عمارُ المدارسِ، وسقاةُ المغارسِ، مُرَبُّو الجيل، وأئمته، أبناؤنا المعلمون المستحقون لأجر الجهاد، وشكر العباد، الصابرون على عنت الزمان ....

(١٦٥) انظر المرجع السابق ٣/٢٥٨-٢٨٠.

(١٦٦) المرجع السابق ٣/٢٧٧.

(١٦٧) انظر تفصيل ذلك في مقالة (حقوق المعلمين الأحرار على الأمة) الآثار ٣/٢٧٧-٢٨٠.

وقلة الأعوان، وحَاصَة[١٦٨] الشق، وألسنة الصدق"[١٦٩].

ثم يختم كلمته بقوله: "أي طلائع الزحوف، وأئمة الصفوف، سلام عليكم بما صبرتم، وتحيات مباركاتٌ طيبات بما آوتيتم لغة الضاد ونصرتم، وثناء عليكم يأرج كالمسك من والد بَرٍّ بِكُمْ، نُصحه لكم هدىً، وروحه وجوارحه لكم فدىً"[١٧٠].

وفي مقالته (إلى أبنائنا المعلمين الأحرار) يذكرهم بأنهم في ميادين جهاد، وأنهم عاملون فمسؤولون عن أعمالهم، فمجزيون عنها من الله، ومن الأمة، ومن التاريخ، ومن الجيل الذي يقومون على تربيته كيلاً بكيل، ووزناً بوزن، ويحذرهم من عواقب التقصير في تلك المهمة الجليلة.

وفي منتصف تلك المقالة يذكرهم بواجب التربية أثناء التعليم، ويفصِّل لهم في دقائق مهمة حال قيامهم بتلك المهمة، فيقول: "ها أنتم تربعتم في مدارسكم عروش ممالك رعاياها أبناء الأمة، وأفلاذ أكبادها، تديرون نفوسهم على الدين وحقائقه، وألسنتهم على اللسان العربي ودقائقه، وتسكبون في آذانهم نغمات العربية، وفي أذهانهم سر العربية، وتدبرون أرواحهم بالفضيلة والخلق المتين، وتروضونهم على الاستعداد للحياة الشريفة بعد أن تجتثوا من نفوسهم بقايا آثار المنزل الجاهل، والأب الغافل، وتقودونهم بزمام التربية إلى مواقع العبر من تاريخهم، ومواطن القدوة الصالحة من سلفهم، ومنابت العز والمجد من مآثر أجدادهم الأولين...".

إلى أن يقول: "واحرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم ... وهي أن هذا الجيل الذي أنتم منه، لم يؤت في خيبته في الحياة من نقص العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقصٍ في الأخلاق؛ فمنها كانت الخيبة، ومنها كان الإخفاق"[١٧١].

---

(١٦٨) حَاصَة: جمع حائص، من الحوص وهي الخياطة، والحائص: هو الذي يحصُّ الثوب، ويجمع أطرافه بالخيط، يقال: حاص الثوب يحوصه حوصاً وحياصة، ومنه المثل: (إن دواء الشقِّ أن تحوصه). انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (حوص) ١٢٠/٢، وتاج العروس للزبيدي ٥٣٧/١٧.

(١٦٩) آثار الإبراهيمي ٢٦١/٣.

(١٧٠) المرجع السابق ٢٦١/٣.

(١٧١) المرجع السابق ٢٦٤/٣.

ثم ينبه إلى مسألة القدوة، وأن الناشئ الصغير مرهف الحس، طُلَعَةٌ إلى مثل هذه الدقائق، قوي الإدراك للمعايب والكمالات؛ فلا ينبغي أن تُزَيَّن له المحاسن دون أن يتمثلها المعلمون؛ إذ كل ما ينقش في نفوس التلاميذ من غير أن يكون منقوشاً في نفوس المعلمين فهو زائل.

ثم يقرر أن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عن المعلمين من الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة.

ثم يوصيهم بالتقوى، ويبين لهم ثمراتها، وبالرفق والأناة، والتواضع، واجتماع الكلمة، وحسن العشرة فيما بينهم(١٧٢).

وفي مقالته الثانية (كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار) يؤكد على ما ذكره آنفاً، ثم يحذر من آفة خطيرة ألا وهي آفة الإلحاد، فيقول: "في وطنكم موجة من الإلحاد جاءت في ركاب الثقافة الغربية، ومكَّن لها القصد الصحيح من غايات الاستعمار، ومهد لها في نفوس هذا الجيل جهلُه بحقائق الإسلام، وضعف صلته بالله، وإن تساهلكم في إقامة شعائر الدين، أو استخفافكم بأحكامه معين على تفشي الإلحاد في الجيل الجديد الذي تقومون على تربيته؛ فاحذروا الظهور بمظهر المستخفِّ بالدين ولو في فلتات اللسان؛ فإن لكل فلتةٍ، ولكل كلمة تصدر منكم أثراً في نفوس تلاميذكم؛ لأنكم محل القدوة عندهم، ولأن زمنهم يتبرع بالباقي؛ فإذا وجد العون منكم كان أجود بالشر من الريح المرسلة"(١٧٣).

ويؤكد في مقالة (حقوق الجيل الناشئ علينا) على أهمية مسألة التربية، وأن تكون منصبةً على إصلاح الفكر، وضبط النوازع؛ فيقول: "وغاية الغايات من التربية هي توحيد النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبطُ نوازعه المضطربة، وتصحيح نظراته إلى الحياة، ونقله من ذلك المضْطَرَبِ الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه إلى مُضْطَرَبٍ أوسعَ منه دائرةً، وأرحبَ منه أفقاً، وأصحَّ أساساً"(١٧٤).

(١٧٢) انظر المرجع السابق ٣/٢٦٤-٢٦٥.

(١٧٣) المرجع السابق ٣/٢٧١.

(١٧٤) المرجع السابق ٣/٢٧٥.

ثم يعلل بأنه إذا تم له ذلك، وانتهى إلى مداه طمعنا أن تخرج لنا المدرسة جيلاً متلائم الأذواق، متحد المشارب، منضبط النزعات، ينظر إلى الحياة -كما هي- نظرة واحد، ويسعى في طلبها بإرادة متحدة، يعمل لصالح الدين والوطن بقوة واحدة في اتجاه واحد.

ثم يؤكد على أن غاية التعليم هي تفقيه الطالب في دينه ولغته، وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه؛ فهذه -كما يقرر- هي الغاية السامية التي يُسعى إلى تحقيقها(١٧٥).

وبالجملة فإن كلام الإبراهيمي، وتقريراته ونظراته في الإصلاح التربوي كثيرة جدًّا، وهي جديرة بالدراسة والتحليل. ولكن ما مضى هو أهم ما يناسب المقام في هذا البحث، ألا وهو كون الإصلاح التربوي من أهم معالم المنهج البنائي الذي اتخذته الجمعية سبيلاً لمقاومة الإلحاد.

(١٧٥) انظر المرجع السابق ٣/٢٧٥.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

ففي خاتمة البحث هذه أهم النتائج، وأبرز التوصيات.

أولاً: أهم النتائج

١- لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين جهد كبير متنوع في مقاومة الإلحاد، ولهذا الجهد منهج واضح متميز يتمثل في مسارين: الأول منهما وهو المنهج النقدي الإبطالي للإلحاد، والأخر وهو المنهج البنائي الذي يحمي من غوائل الإلحاد.

٢- يتمثل المنهج النقدي للجمعية في مقاومة الإلحاد في بيان أسباب الإلحاد المتمثلة -في نظر الجمعية- بالاستعمار، والتبشير، وضلالات الطرقية، وغفلة الأولياء عن تربية النشء، والتقليد الأعمى في مسايرة الثقافة الغربية، وشيوع الجهل، وضعف الدعوة إلى الله.

ويتمثل كذلك في بيانها لمفاسد الإلحاد، وذمِّه، وذم ما يتعلق به.

٣- للجمعية منهج بنائي في مقاومة الإلحاد، ويتمثل بالإصلاح العقدي، والإصلاح العلمي، والإصلاح التربوي.

ثانياً: أبرز التوصيات:

يوصي الباحث في ختام هذا البحث بوصايا علمية حول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سواء في دائرة التخصص أو غيرها، وأهمها ما يلي:

١- منهج الجمعية في الحث على اجتماع الكلمة والتحذير من الافتراق والتفرق.

٢- موقف الجمعية من التبشير والاستعمار.

٣- العلاقة بين علم العقيدة واللغة عند علماء الجمعية.

٤- العلاقة بين علم العقيدة وعلم الاجتماع عند علماء الجمعية.

٥- العلاقة بين علم العقيدة وعلم المقاصد عند علماء الجمعية.

٦- مظاهر التجديد الديني عند علماء الجمعية.

أما في غير تخصص العقيدة فهناك توصيات أهمها:

١- الأساليب البلاغية في خطاب رئيس الجمعية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

٢- التضمين والاقتباس في آثار رئيس الجمعية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

والحمد لله أولاً وآخراً.

فهرس المصادر والمراجع

١. ابن باديس حياته وآثاره د. عمار الطالبي، الشركة الجزائرية، الجزائر، ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢. آثار الإمام عبدالحميد ابن باديس، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
٣. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م.
٤. استراتيجية ابن باديس في تدبر القرآن وأثرها في نهضة الأمة، أ. د. محمد زرمان، جامعة باتنة الجزائر.
٥. الأعلام لخير الدين الزركلي، ط٤، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.
٦. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، تحقيق وتعليق د. ناصر بن عبدالكريم العقل، دار اشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٧. تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
٨. التاريخ، لعبدالرحمن بن محمد بن خلدون، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٠هـ.
٩. تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ.
١٠. التعريفات، تأليف: الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١١. تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، ومحمد الصالح رمضان، دار الفكر والنشر والتوزيع، دمشق، ط٣، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
١٢. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها في اللغة والأدب، صالح بن عبدالله الجلعود، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، شعبة الأدب والنقد، ١٣٩٣ - ١٣٩٤هـ.
١٣. جهود جمعية العلماء الجزائريين في خدمة السنة النبوية، أ. سيداتي ولد محمد عبدالله، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، العدد ٢٦، ربيع الثاني ١٤٣٦هـ، فبراير ٢٠١٥م.

١٤. جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تقرير توحيد العبادة والرد على المخالفين لسليم فؤاد مجوبي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، العام الجامعي ١٤٢٨ - ١٤٢٩هـ.

١٥. الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٣٠-١٩٤٥م) أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

١٦. حكم الاشتراكية في الإسلام، للشيخ عبد العزيز البدري، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط٥، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م خزانة الأدب للبغدادي

١٧. خزانة الأدب ولباب لسان العرب، تأليف عبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٨. الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دراسة مقارنة بين عبدالحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، حمزة شفري، جامعة الحاج لخضر - باتنة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم أصول الدين، السنة الجامعية ١٤٢٩ - ١٤٣٠هـ.

١٩. ردود علماء الغرب على الإلحاد المعاصر عرض ونقد، د. جوهانس كلومنك - عبدالله السويدي، دار وقف دلائل للنشر، ط١، ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م.

٢٠. رسالة أبي حيان في العلوم، لأبي حيان التوحيدي، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٨م.

٢١. زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي وأصحابه، دار عطاءات العلم، دار ابن حزم، بيروت، ط٣، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٢٢. سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي الترقي بالعاصمة في سبتمبر سنة ١٩٣٥م، المطبعة الإسلامية الجزائرية قسنطينة.

٢٣. الشرك ومظاهره، لمبارك الميلي، تحقيق أبي عبدالرحمن محمود، ط١، دار الراية، ١٤٢٢هـ.

٢٤. الشهاب، الجزء الحادي عشر، المجلد العاشر، غرة رجب ١٣٥٣هـ.

٢٥. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وموقفه من علم الكلام، دراسة وتحليل، محمد بن إبراهيم الحمد، دار الحضارة، الرياض، ط١، ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م.

٢٦. الشيوعية خلاصة ضروب الكفر والموبقات والشرور والعاهات، لأحمد عبدالغفور عطار، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٢٧. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، علق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.

٢٨. عبدالحميد بن باديس مفسراً، لحسن عبدالرحمن سلوادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤.

٢٩. العلاقة بين جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية (١٩٢٥-١٩٥٤م): نوار خرخاشي نبيل، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم العلوم الإنسانية شعبة التاريخ، السنة الجامعية ٢٠١٢-٢٠١٣م.

٣٠. فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن صالح العثيمين، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، ط١، ١٤١٠هـ.

٣١. فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق ومراجعة: د. فائز محمد، و د. إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣٢. في سبيل لغة القرآن د. مرزوق ابن تنباك، الناشر دار المعارف، مصر، ١٩٩٣م.

٣٣. الكليات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية - لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، قابله على نسخة خطية، وأعدَّه للطبع: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣٤. مبادئ ومجالات الإصلاح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٣١- ١٩٥٤م) د. رشيد مياد، جامعة المدية، مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد التاسع، جوان ٢٠١٦م.

٣٥. مجلة الشهاب الجزء التاسع المجلد التاسع غرة ربيع الثاني ١٣٥٢

٣٦. مجلة الشهاب الجزء التاسع غرة ربيع الثاني ١٣٥٢هـ.

٣٧. مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م.

٣٨. مصادر الدرس التفسيري والحديثي عند علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وآثاره العلمية، د. نبيل بلهي، الملتقى الوطني، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

٣٩. معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، بتحقيق وضبط عبدالسلام هارون، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ.

٤٠. مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، تحقيق د. عبدالرحمن بن حسن قائد، دار عطاءات العلم، دار ابن حزم، ط٣، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٤١. المفصل في صنعة الإعراب، لأبي القاسم جارالله الزمخشري، تحقيق د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال - بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٤٢. مقالات في اللغة والأدب د. محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.

٤٣. منهج جمعية العلماء الجزائريين في ممارسة النصيحة، وأثرها في إصلاح الواقع الجزائري أ.د. كمال لدرع، مجلة الشريعة والاقتصاد، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة، ضمن كلية الشريعة والاقتصاد، عدد يونيو ٢٠١٢م، المجلد الأول

٤٤. نقد أصول الشيوعية، للشيخ صالح بن سعد اللحيدان، مكتبة الحرمين، ط٢، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.